

الفصل الاول

اللغة وتكوين الراى العام

يبذل العلماء جهودا متواصلة لدراسة اثر اللغة في تكوين الراى العام ، واعتبارها اهم عناصر القوميات ، دراسة علمية حتى يمكن التنبؤ بنتائج آثار الاعلام والتحكم فيها .

على ان فهم طبيعة الراى العام ركن اساسى يساعد على كشف العلاقات التى تقوم بين عناصره المختلفة ، فاذا كان الراى العام ظاهرة تلقائية اطلقوا عليها « عقل الجماعة » او الضمير الجمعى ، على نحو ما ذهب اليه العالم الفرنسى « اميل دركيم » . فان « اللغة » ليست من صنع الافراد ، وانما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبت من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات ومقتضيات العمران . وهذا ما يعنيه علماء الاجتماع اذ يقررون انها من « نتاج العقل الجماعى » .

وقد عرف البعض مضمون عقل الجماعة بانه نظام خلقى ينشأ نتيجة تفاعل نشاط الافراد ، وتبادل العلاقات الاجتماعية فيما بينهم . وفي النهاية يصبح هذا العقل الجماعى هو القوة المسيطرة لاعماله الاجتماعية وتصرفاتها ، بحيث انه عند ما يقوم الافراد باى نشاط اجتماعى ، فانهم يدخلون في اعتبارهم ، ويضعون في صلب ضمائرهم ، اهداف المجتمع واغراضه ، وبذلك تندمج ذواتهم الفردية في الجماعة التى ينتمون اليها ، ويتحدد سلوكهم وتضبط علاقاتهم وفقا للعقل الجمعى (1) .

فاللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الافراد في اتباعه ، ويتخذونه اساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم ، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض وعلى ذلك فاننا لا يمكن ان ندرس تأثير اللغة الاعلامية في الراى العام دراسة موضوعية ، عن طريق دراسة سلوك الافراد ، باعتبارهم ذرات منفصلة ، او كما يقول الدكتور ابراهيم امام (2) كما لو حاولنا دراسة صفات الماء بالرجوع الى صفات كل من الهيدروجين والاكسجين اللذين يتألف منهما .

فاللغة ليست من الامور التى يصنعها فرد معين او افراد معينون ، وانما تخلقها طبيعة الاجتماع وتنبت عن الحياة الجمعية — على حد تعبير الدكتور على عبد الواحد وافي (3) — وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل للافكار . وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسر عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه تلقيا بطريق التعلم والتقليد ، كما يتلقى عنه سائس النظم الاجتماعية الاخرى ، ويصب اصواته في قوالبه ، ويحتضيه في تفاهمه وتعبيره .

والراى العام — كما يقول الدكتور امام (4) — هو المتبع الذى تصدر منه احكام الجماهير ، كما انه القوة التى يسمى الاعلام — عن طريق اللغة — الى التأثير فيها . ومع ان الراى العام وجود معنى لا نراه ، فان ذلك لا ينقص شيئا من قوته ، شأنه شأن الضغط الجوى الذى لا نراه ولكنه موجود بمعدل عشرين رطلا على البوصة المربعة كما يقول جيمس رسل الاول .

واللغة من الامور التى يرى كل فرد نفسه مضطرا الى الخضوع لما ترسمه (5) وكل خروج على نظامها ولو كان عن خطأ او جهل ، يلتقى من الراى العام مقاومة تكفل رد الامور الى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف ببعض انواع الجزاء .

فاللغة اذن ظاهرة اجتماعية . وهى بوصفها هذا تؤلف اهم عناصر تكوين الراى العام ، الذى يسمى الاعلام بوسائله المختلفة الى التأثير فيه .

وهذا يعنى افتراض وجود علاقة قوية بين اللغة والراى العام . ولقد درج العلماء على الكلام عن « الراى العام » وكيف انه : الفكرة السائدة بين جمهور من الناس تربطهم مصلحة مشتركة ازاء موقف من المواقف او تصرف من التصرفات ، او مسألة من المسائل العامة التى تثير اهتمامهم او تتعلق بمصالحهم المشتركة . فالراى العام يمثل محصلة الآراء والاحكام السائدة في المجتمع . وهذه الظاهرة تكتسب صفة الاستقرار وتختلف في وضوحها ودلالاتها في عقول الافراد ولكنها تصدر عن اتفاق متبادل بين غالبيتهم — رغم اختلافهم في مدى ادراكهم لمفهومها — ومبلغ

- (1) الدكتور عبد العزيز عزت : العقل الجمعى وراى في طبيعة المجتمع البشرى .
- (2) الاعلام والاتصال بالجماهير ص : 204 .
- (3) اللغة والمجتمع .
- (4) العلاقات العامة والمجتمع ص : 137 .
- (5) د . وافي : المرجع نفسه ص : 4 .

تحقيقها لنفهم العام ومصطلحتهم المشتركة (6) .

على ان العلماء من امثال : بارك وبيرجيس وروس وغيرهم يؤكدون ان الاجتماع العام او الراى السائد يكون فى اغلب الاحوال مبنيا على العرف والتقاليد والعادات . اما الراى العام فأساسه الحوار والتقاش واحتكاك الافكار وتفاعل الآراء . والراى السائد او الراى الاجتماعى قد يكون مبنيا على تقاليد موروثة او على عادات كانت آراء فى الماضى ، ولكنها اصبحت كالبديهيات المسلم بها .

اللغة والاتصال الانسانى :

ومع ان الراى العام من المصطلحات الحديثة التى لم تعرف الا فى اواخر القرن الثامن عشر ، ابان حرب الاستقلال الامريكية والثورة الفرنسية ، فلا يمكن القول بأن الحضارات القديمة كانت خالية من المفاهيم المشابهة للراى العام .

فلو اخذنا الحضارة — او الثقافة كما يفضل الانثروبولوجيون تسميتها . على انها هى حصيللة النشاط البشرى خلال تاريخه الطويل ، والتى تتمثل فيها انتجه عقل الانسان الخالق المبدع من فنون وآداب وآلات وادوات وصناعات ، واخلاق وعادات وقيم ، وفيها حققته من مهارات فى كل هذه الميادين لظهر لنا ان الخاصية الرئيسية التى تميز الحضارة هى خاصية الاستمرار . والقدرة على الانتقال من جيل لآخر ، بحيث ياخذ كل جيل عمن سبقوه ويضيف الى ما اخذه منهم ثم ينقلها بعد ذلك للاجيال التى تأتى بعده . فخصاصية التراكم — كما يقول الدكتور احمد ابو زيد(7) — اذن هى التى تجعل هناك فارقا اساسيا بين الحضارة الانسانية ومختلف انواع النشاط التى نصادفها عند الجماعات الحيوانية الاخبرى ، واداة

هذا التراكم هى اللغة . والذى يمنع الحيوانات والقرود العليا من ان تكون لها حضارة هو فى المحل الاول افتقارها الى اللغة وبالتالي عدم وجود قدرة كلامية وفكرية على مواصلة تجاربها وخبراتها . فما يكتسبه القرد مثلا من « معرفة » فى حل مشكلة ما يظل خبرة استقرارية راكدة مقصورة عليه هو وحده . وقد يتذكرها حين يصادف نفسه ازاء مشكلة مشابهة او موقف مماثل ، ولكنه فى الفترات التى تتخلل ذلك لا يعكف على التفكير فى تلك الخبرة او التجربة بقصد تحسينها او استخلاص اية نتائج منها للاستفادة منها فى حل المشاكل الاخرى مثلما يفعل الانسان الذى يناقش فى العادة المشكلة عن طريق اللغة ويفكر فيها بعد انتهائها ليرى ما اذا كانت هناك تطبيقات اخرى لتلك المعرفة . فمن طريق اللغة والتفكير تكون خبرات الانسان وتجاربه مستمرة ومتصلة وهذا يساعد بالتالى على تطويرها وتنميتها . ومن هنا كانت الميزة الكبرى التى يتميز بها الانسان وهى القدرة على نقل تلك الخبرات التى تؤلف فى آخر الامر التراث الحضارى او الثقافى من جيل لآخر عبر الزمن (8) .

فاللغة كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو والقدرة على الانتقال . والاكثر من هذا كله فانها هى ذلك الجزء من الثقافة او الحضارة الذى يساعد اكثر من غيره على التعلم وزيادة الخبرة والمشاركة فى خبرات الآخرين ، سواء الخبرات الماضية او الحالية . اى انها العامل الاساسى فى عملية التراكم التى هى اهم عنصر فى الحضارة الانسانية (9) .

تكوين الراى العام :

على ان العوامل التى تؤدى الى تكوين الراى العام ، كثيرة ومتشابهة ، كما انها تتفاعل مع بعضها

(6) د . و . وافي : المرجع السابق ص : 147 .

(7) مجلة « عالم الفكر » — المجلد الثانى — العدد الاول — 1971 — الكويت .

Hoiyer, "Language and writing" pp. 197.

(9) د . احمد ابو زيد : المرجع السابق .

البعض ، وفي رأى ماكجوجال (10) ان اهم هذه العوامل هي : الثقافة والاحداث ، والزعامة ، والاتصال الجماهيري ، والاتصال الشخصى والشائعات .
ومن ذلك يبين ان اللغة هي معامل الارتباط بين هذه العوامل جميعا .

ولقد درج العلماء على اعتبار الثقافة ذات اثر كبير في تكوين الرأى العام ، وذهب بعضهم في دراستهم للعلاقة بين اللغة والثقافة على الاكتفاء بتبين العلاقة الخارجية الواضحة بين مفردات اللغة ومحتوى الثقافة ، كما كانوا يحرصون على ان يبينوا ان هذه المفردات تعكس الى حد كبير اهتمامات المجتمع والجوانب التي يرتكز عليها والتي تشغل بال اعضائه مثل التقنية او التنظيم الاجتماعى او الدين او الروابط القربانية وما الى ذلك من المسائل التي تحتل مكانا مركزيا في بناء المجتمع وتدور حوله بالتالى اوجه النشاط الاجتماعى المختلفة .

وكل هذا يوضح ان ثمة صلة قوية بين مفردات اللغة وكثير من جوانب الثقافة غير اللغوية (11) ولكن الشئ الذى لم يهتم به معظم هؤلاء العلماء اهتماما كبيرا على الاقل هو ان اللغة قد تتدخل في تحديد وتركيب اغلاط الفكر في المجتمع الذى تسود فيه سواء ادرك الناس ذلك ام لم يدركوه . فكما ان الفنان وعالم النبات قد ينظران الى الاشجار والنباتات والزهور من ناحيتين مختلفتين ، كذلك الحال بالنسبة للجماعات التي تتكلم لغات مختلفة تنظر الى العالم نظرات مختلفة وتدركه بطرق مختلفة (12) وهذا معناه ان الاكتفاء بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافى لا تعنى شيئا اكثر من ان اللغة لها اساس ثقافى او حضارى وانه لن يمكن بالتالى تحديد مفردات اللغة تحديدا دقيقا الا بمعرفه بقية مظاهر الثقافة .

ولذلك يؤكد اوديجارد انه من المستحيل ان نفهم الرأى العام في امة من الامم ما لم نتدخل في اعتبارنا

تلك القوى المادية والادبية التي تشكل شخصية هذه الامة . ولكي نتعرف على اتجاهاتها وآرائها ، يجب علينا ان نهتم بدراسة المنظمات الاجتماعية التي تعطى للفرد معتقداته وتشكل اتجاهاته . فالانسان في المجتمع يتأثر بالاسرة والدين والتقاليد ونظام الدولة والاصدقاء والاقربان والصحف واجهزة الاعلام ، والجماعات ذات النفوذ كالنقابات والاحزاب والهيئات . ففى خلال هذه القنوات المتشعبة تمر التأثيرات المختلفة كل يوم ، لكي تكون اتجاهات الرأى .

ويرى ليمان ان المسائل العامة هي التي تهتمنا من سلوك الناس ، وهذه المسائل العامة تتأثر بها يتصوره الناس او يتك الصور التي يكونونها في رؤوسهم عن انفسهم وعن حاجاتهم واهدافهم وعلاقاتهم ببعض البعض . ويقول ليمان ان هذه الصور التي توجد في رؤوس الناس عن انفسهم وعن الآخرين هي آراؤهم العامة ومجموعة هذه الآراء تكون بدورها ما يسمى بالرأى العام .

فالناس لا يعيشون في العالم الموضوعى الخارجى وحده كما انهم لا يعيشون في عالم النشاط الاجتماعى فقط كما يظن الكثير من العلماء وانما هم خاضعون الى حد كبير لرحمة اللغة التي يتخذونها اداة ووسيلة للتعبير . « فعالم الواقع » او الحقيقة يرتكز الى حد كبير بطريقة لا شعورية على العادات اللغوية للجماعة ولا توجد لغتان متشابهتان تشابهها كافيًا بحيث تعتبران مثلثتين لنفس الحقيقة او الواقع الاجتماعى . فالعوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متميزة اذن وليست عالما واحدا التصقت عليه اسماء وعناوين مختلفة (13) .

ويذهب بنيلمين فورف (14) الى اننا نقوم بتقسيم الطبيعة حسب خطوط معينة رسمتها لنا لغاتنا . وهذه الفئات والاشتماط التي نفضلها من عالم الظواهر لا يتم العثور عليها لانها تواجهنا او لا لانها امور واضحة امام اعيننا وانما الامر على العكس من ذلك تماما ،

(10) د . احمد ابو زيد : نفس المرجع .

Pearcock, J.L. Ikirsh, A.T. "The Human Direction" p. 16
C. Macdougall, Curtis D. "Understanding Public Opinion"
(1955) New York

(12) مجلة « عالم الفكر » - المجلد الثانى - العدد الاول - 1971 - الكويت .

Sapir "Language" p. 162 (13)

Wharf, B.L., "Science and Linguistics" the Technology Review Vol. 42, 1940, p. 231. (14)

منها ، والذي يقدمه المفسرون لها هو المؤثر الحقيقي (16) - الخ

الاتصال والرأى العام :

وتأسيسا على هذا الفهم نحاول ان نلتئم اثر الاعلام فى تكوين الرأى العام ، فنجد ان الاتصال الاعلامى يقوم بوظيفتين هامتين هما : استخلاص الرأى ، وحمايته .

وسيلة الاتصال الاعلامى فى تحقيق هاتين الوظيفتين هى : اللغة ، التى لا تصبح مجرد وسيلة للتعبير عن الافكار او مجرد رموز لما يدور فى الاذهان ، وانما تصبح تلك الوسيلة التى امتزجت بها عقولنا ونفوسنا ، وندين لها بتلك القوة التى ساعدتنا على التعاون مع رفاقنا ، ومنحتنا السيطرة على مخلوقات اقوى منا جسما .

فاذا كان للرأى العام وجود حقيقى ، او مفهوم محدود ، وجب ان نلتئم فى تلك الرابطة الوثقى التى تؤلف بين افراد المجتمع وتوحد بين افكارهم واحاسيسهم وعواطفهم ، والتى تسمى باللغة او اللسان .

فأقوى رباط يجمع اواصر الاسرة هو اللغة التى يشعر معها افراد الاسرة انهم يفكرون بطريقة موحدة ، ويحسون باحساس واحد ، وينطقون نطقا متماثلا . فالاسرة صفات خاصة فى النطق والآراء ، واختيار الالفاظ واينار بعضها على بعض . وهكذا تكون القومية بمعنى الرباط الوثيق بين افراد المجتمع ذات مستويات ، وذات احكام ، واصفرها حجبا ما نسميه بالاسرة ، ثم ما نسميه بالقرية ، ثم ما نسميه بالمدينة ، ثم ما نسميه بالدولة التى لها لغة مشتركة تنتظم كل المناطق ، ويعمد اليها كل افراد المجتمع (17) .

وقبل ان نحاول دراسة علاقة اللغة بالقومية ، سنحاول علاج كيفية تأثير الاتصال فى الرأى العام .

سبق ان ذهبنا الى ان الاتصال يقوم بوظيفتين : استخلاص الرأى وحمايته . فالرأى الفردى الكامن لا بد وان يتحول الى رأى علنى ظاهر ، وليس معنى

بمعنى ان العالم الخارجى او الواقعى هو مزيج من العناصر والعلاقات والظواهر المختلفة المتباينة الى ابعد حدود التباين وان العقول الانسانية هى التى تتدخل لتكشف عما فيه من تنظيم ، ووسيلتها الى ذلك هى الانساق اللغوية التى توجد فى تلك العقول الانسانية ذاتها . فنحن الذين نقوم بتقسيم الطبيعة وتجزئتها وتنظيمها فى شكل مفهومات وتصورات ونعطيها بذلك او اثناء ذلك معانى محددة تحديدا دقيقا .

الانماط والرأى العام :

وتتصافر قوى التأثير الاعلامية والثقافية بما فى ذلك العلوم ذاتها والموسيقى والنقد الادبى وغيرها ، لتشكيل الانسان الجديد الذى يجد نفسه فى وسط شبكة من التأثيرات المتقاطعة . فالخطب والافلام والاغاني ، وصحف الحائط ، والرسوم البيانية ، وغيرها ، تكون فى مجموعها خطة محكمة لجذب اهتمام الناس والتأثير فيهم ذلك ان الانسان ليس فردا منعزلا عن المجتمع . ولكنه يخضع فى نفس الوقت - الى حد كبير - لرحمة اللغة التى يتخذها وسيلة للتعبير والاتصال .

فالشخص فى المجتمع الحديث ، لا يستطيع ان يتقبل المدركات دون ان يسبغ عليها من المعانى ما يتفق مع خبراته السابقة ، وقيمه ومبادئه .

والثقافة هى التى تحدد لنا مقدما هذه المعانى ، فنحن لا ندرك ما نراه ، وانما ندرك ما حددته لنا ثقافتنا - من قبل - فى شكل انماط جامدة . فبالناس لا يشاهدون ويلاحظون ثم يحددون ، ولكنهم يرون الاشياء كما حددتها لهم بيئتهم وثقافتهم (15) .

ولا يعنى ذلك ان الانماط اللغوية تعمل على تحديد المدركات الحسية والتفكير ولكن عملها هو توجيه الادراك والتفكير فى اتجاهات معينة مألوفة مستعينة فى ذلك بالاغلاط الثقافية الاخرى .

وتختلف طرائق واساليب التفكير فى المجتمعات المختلفة بالنسبة للمذاهب وليست المذاهب نفسها ، فليست الماركسية هى المؤثرة ، ولكن النمط السائد

(15) امام : « الاعلام والاتصال بالجواهر » ص 252

(16) د . ابراهيم انيس : اللغة بين القومية والعالمية - ص : 102 .

(17) د . امام : الاعلام والاتصال بالجواهر ص 218 .

الإعلام ، أو عن طريق حملات الهمس أو الشائعات. وقد فطن خبراء الدعاية والإعلام ، من خلال تجارب الحربين العالميتين أن تأثير الاتصال في الرأي العام يزداد قوة باستخدام الأخبار بدلا من المقالات الجدلية والكتابات الانشائية . فقد اكتشفت قيمة الخبر في التوجيه والتأثير ، -وأصبح الخبر هو العامل الذى يحدد صورة الأحداث في أذهان الجماهير وكفت الدعاية عن انتهاج الأساليب البلاغية والجدلية ، ليحل محلها الأسلوب الإخبارى العلمى .

وحتى عند ما نقل الأخبار ، أو ينضب معينها ، لا يجد الإعلاميون بأسا من خلقها أو اختلاقتها (20). ويستغل خبراء الدعاية طبيسه الإنسان ، بإدراكه المحدود للعالم ، ومعرفته للأشياء بطريقة غير مباشرة أى عن طريق المعلومات والصور التى تنقل اليه بدلا من الخبرة الموضوعية والإدراك المباشر فيعملون على خلق الصور الذهنية التى تحقق أغراضهم . ويسمى الدعاية دائما عن طريق التحكم فى المعلومات التى يعرفها الناس الى خلق الاتجاهات العامة التى يريدونها أن تنتشر بين الجماهير .

ومع ذلك فإن هناك حدودا لا يستطيع الدعاية أن يتجاوزها مهما كانت قدرته ، ومهما كانت سلطته فى الرقابة على الأخبار والمعلومات . لأن الفرد يتمتع بقدرة على انتقاء ما يتعرض له من مواد اعلامية ، كما أن هذا الانتقاء يمتد الى قوى الإدراك والتذكر ، يضاف الى ذلك مجموعة القيم والمبادئ التى يعتمدها الفرد ، ويتأثر بها من خلال الجماعات الأولية التى يعيش فيها .

فالإنسان العادى بمعتقداته الراسخة — دينيا أو سياسيا أو اقتصاديا — لا يمكن أن يتقبل أى مناقشة دعائية تتعارض مع معتقداته . وقد أوضح « الدوس هكسلى » (21) أنه ليس من الصعب اغراء الناس على فعل ما يتوقنون اليه . كما أنهم لا يسلكون كما يسلكون نتيجة لصفحات قراؤها أو خطب سبوعها ،

ذلك ان الاتصال لا بد ان يسرى فى اتجاه واحد من القيادة الى الجماهير ، اذ ان الاتصال يتخذ ثلاثة مسارات (18) .

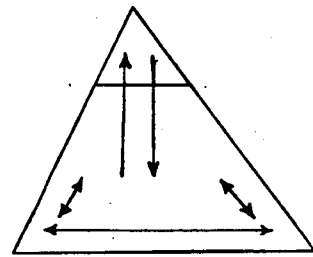
اولا : الاتصال الهابط من القيادات الى القواعد ، وهو يشتمل على التوجيهات والتعليمات والبيانات والتفسيرات وغيرها .

ثانيا : الاتصال الصاعد من الجماهير الى القيادات وهو يشتمل على الملاحظات والشكاوى والخطابات التى تمثل اتجاهات الجماهير .

ثالثا : التيار الافقى الذى يسرى بين فئات الجماهير فى مستوياتها المختلفة .

وقد صور « هانزسباير » هذه التيارات الاتصالية على النحو التالى :

القيادات



الجماهير

ولكن هذه التيارات جميعا ، لا بد وان تتفاعل وتتسق اتساقا متكاملا ، مما يساعد على تكوين الرأى العام .

وفى رأى ماكدوجال (19) كما سبق ان اهم عوامل تكوين الرأى العام هى : الثقافة ، والأحداث ، والزعامة والاتصال الجماهيرى ، والاتصال الشخصى ، والشائعات .

على ان الاتصال بالجماهير من اقوى هذه العوامل فى تكوين الرأى العام ، سواء عن طريق اجهزة

(18) الدكتور امام : « الاعلام والاتصال بالجماهير »

(19) المرجع السابق — ص : 239 .

C. Macdoogall, curtis D., "Understanding Public Opinion"

(20) « الاعلام والاتصال بالجماهير » ص : 251 .

(21) نفس المرجع السابق ص : 145 .

وانما تكون تصرفاتهم نتيجة لتعرضهم منذ الطفولة الى تربية معينة ، وتوجيه سلوكى متراكم .

على ان ذلك لا ينفى ان اساس الراى العام ، هو الاتصال الفكرى ، وحرية المناقشة ، فعند ما يقارن الناس خبراتهم ، ويعبرون عن وجهات نظرهم فى مسألة من المسائل الجدلية ، ويعلنون ذلك بوسائل الاعلام المختلفة ، وعن طريق المنظمات الاجتماعية ، فان هذه المسألة او المشكلة تصبح موضوعا للموعى العام او الادراك الاجتماعى . فاذا تيسر الاتصال بين الناس ، تيسر صدور الراى العام ، اما اذا تعذر الاتصال ، فان الراى العام يصبح متعذرا .

ذلك ان الاتصال يتيح للمناقشات والجدل بين الافراد ان تتبلور فى رآى عام . ولا بد فى الاتصال الاعلامى من وجود طرفين او عنصرين هما عنصر المرسل (بكسر السين) وعنصر المستقبل (بكسر الباء) . الاول هو الوسيلة الاعلامية التى تنقل المعلومات او الاخبار الى القارئ او السامع سواء كان فردا او جماعة . ويختلف الافراد بعضهم عن بعض فى استقبال المعلومات . لانهم يختلفون من حيث امزجتهم وقواهم العقلية وطريقة فهمهم للاشياء ومن التأثير المتبادل بين المرسل والمستقبل يتكون الراى العام فى العادة ذلك ان الفرد فى المجتمع الحديث لا يملك من الوقت او الجهد او المال او العلم ما يمنعه من الوصول الى مدلولات دقيقة لجميع المعارف او تكوين صور حقيقية للعالم الذى حوله . وفى معظم الاحيان يكون الحصول اللغوى للقارئ او المستمع او المشاهد مجدودا ، فلا يفهم ما يقال له .

ومن ناحية اخرى تلجا اجهزة الاتصال بالجمهير الى التبسيط نتيجة لظروف الجماهير ، ولضغوط الحيز الضيق فى المطبوعات ، والزمن المحدود فى الاذاعة والتلفزة . كما يلعب عامل الوقت دورا رئيسيا فى تغطية الاتباء وتحريرها واخراجها .

والجمهير — كما يقول الدكتور امام — لا تتخذ التحليل الموضوعى ، والدراسة العلمية سبيلا للوصول الى الحقائق . فالاشياء لا ترى من خلال المصالح والثقافة السائدة بتاريخها وتجاربها وقيمتها . ومع ان الشخص فى المجتمع الحديث لا يحصل على الحقائق مجردة عن الهوى ، كما ان فرصه الشخصية والاجتماعية للمراجعة والنقد قليلة ومحدودة ، فانه

لا يستطيع ان يتقبل المدركات دون ان يسبخ عليها من المعانى ما يتفق مع خبراته السابقة ، وقيمه ومبادئه . والثقافة هى التى تحدد لنا مقدما هذه المعانى ، فنحن لا ندرك ما نراه وانما ندرك ما حددته لنا ثقافتنا — من قبل — فى شكل انماط جامدة . فالتناس لا يشاهدون ويلاحظون ثم يحددون ، ولكنهم يرون الاشياء كما حددتها لهم بنيتهم وثقافتهم . معتمدين فى ذلك على ما تدهم الثقافة واجهزة الاعلام من رؤى واخيلة وانماط ، وما يسرى بين الناس من شائعات .

ومن ذلك يبين ان الاعلام ، كما يقول «اوتوجروتز» ، هو التعبير الموضوعى لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت .

وتتكون عناصر الاعلام من عناصر ثلاثة :

اولا : عنصر المرسل .

ثانيا : عنصر المستقبل .

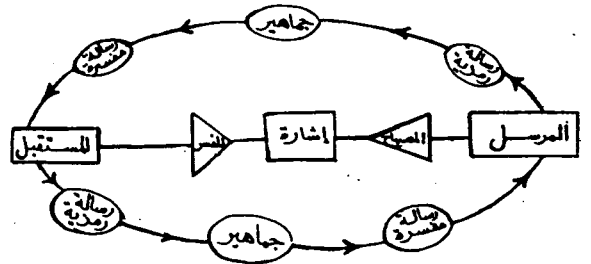
ثالثا : عنصر الاداة او الوسيلة .

وقد اوضح كلابار الادوار الوسيطة النفسية والاجتماعية والثقافية ، التى تقف بين المرسل والمستقبل . فليست هناك علاقة بسيطة ومباشرة بين الاتصال والتأثير ، وانما هناك تفاعل نفسى واجتماعى فى مجال ثقافى بين المرسل والمستقبل ، كما تلعب الدوافع والمدركات والحاجات دورا رئيسيا فى الاتصال الجماهيرى . فالمستقبل لا يتلقى الرسائل الاعلامية تلقيا عشوائيا بانصياع ورضوخ — كما يظن المفكرون النظريون — ولكنه ينتقى منها ما يفيد على ضوء بنائه النفسى الواقعى ، والمحيط الاجتماعى والثقافى الذى يعيش فيه . ومن الثابت ان احكام الآخرين فى الجماعة الاولى التى يتخذها الفرد مرجعا له تقرر الى حد بعيد مدى تأثير الفكر بما يسمع او يشاهد .

ويقدم « ويلبور شرام » نموذجا لعملية الاتصال يصور فيه — اولاً — المصدر او صاحب الفكرة ، وقد تكون هذه الفكرة واضحة بصورة كافية بحيث تعتبر صالحة للتوصيل الى المستقبل ، وقد لا تكون . والعنصر الثانى هو التعبير عن الفكرة وضيافتها فى رموز لتكوين الرسالة ، او الاشارة . والعنصر الثالث هو المستقبل الذى يفك رموز الرسالة ، كما تتلقاها الجماهير المختلفة بصورة غير مباشرة ، والعنصر الرابع هو الاستجابة ، ورجع الصدى الذى قد يصل ، وقد لا يصل الى انتباه مرسل الرسالة الاصلية .

وإذا وصلت هذه الإرجاع ، وفسرها المرسل تفسيراً صحيحاً ، فإن الدورة الاتصالية تكتمل وتكرر هذه الدورة بطبيعة الحال - إلى ما لا نهاية ، وهذه التفاعلات الاجتماعية . هي التي تتيح البناء الاجتماعي والثقافي نفسه .

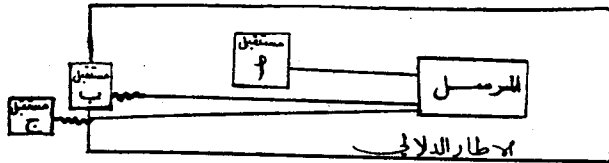
ويمكن تصوير هذه الدورة الاتصالية على النحو التالي :



من تداخل أو تنافس مع الوسائل الأخرى . كما ان المستقبل نفسه ، وقدرته على حل الرموز بالطريقة المطلوبة ، من أهم العناصر لاتمام الدورة الاتصالية . فكفاءة المرسل وقدرته على معرفة الهدف ، والوصول إلى النتائج المطلوبة ، واتقان الصياغة ، وفعالية وسيلة الاتصال ، وقدرته المستقبل على حل الرموز ، لا بد وان ينظر إليها على أنها عناصر متعددة لعملية واحدة . ولا يكفى للتناغم بين المرسل والمستقبل ان تكون الرسالة في لغة يضمنها الطرفان ، بل ينبغي ان تكون الخبرات مشتركة ايضاً ، فالمستمع إلى محاضرة باللغة العربية عن نظرية النسبية لاينشتين ، لن تعوضه معرفته للغة العربية في فهم المضمون ، ما لم يكن قد درس شيئاً من علم الطبيعة والرياضيات ، حتى يتمكن من متابعة المحاضرة .

وهذا ما يعبر عنه بالاطار الدلالي . فكلما كان المرسل والمستقبل يتفاهمان في اطار دلالي واحد ، كان ذلك اقرب ما يكون إلى الفهم .

ويعبر عن ذلك على النحو التالي :



فالمستقبل (أ) يقع داخل الاطار الدلالي للمرسل ، فهو يفهم كل شئ والمستقبل (ب) كاد ان يقع داخل الاطار الدلالي ، فهو يفهم اشياء ولكنه لا يفهم اشياء أخرى ، أما المستقبل (ج) ، فإنه لا يفهم شيئاً مما يقوله المرسل لانه يقع خارج اطاره الدلالي تماماً .

اللغة والاتصال :

قال بعض العلماء : ان اللغة افراز مركب ضروري للفرد . وصالح لان يكيف بالكميديات الاجتماعية ، وبهذا

لا بد للمرسل ان يضع رسالته في شكل معين أو صيغة محدودة من الرموز أو الكلمات ، ومن الطبيعي ان تحتاج هذه الكلمات إلى اجهزة نقل ، أو وسائل اعلام - كالصحف والاذاعة والتلفزة وغيرها - لكي تنتشر بسرعة في أماكن عديدة . ومع ان الكلمات المسجلة ، والرموز المعروفة ، تكون ايضاً من الرموز السبعية ، فإنها اطول عمراً وابتقى على الزمن كالآثار والاهرام والوثائق والكتب .

ويتوقف ذلك - كما يقول الدكتور امام - على مدى التناغم والتوافق بين المرسل والمستقبل فإذا كان المرسل ضعيفاً في كتابته ، أو غير واثق من نفسه ، أو ليست لديه المعلومات الكافية عن موضوعه ، فإن ذلك يؤثر على الاتصال . وإذا كانت الرسالة غير مصاغة بالطريقة الفعالة ، فإنها تقف في سبيل نجاح الاتصال . كما ان الوسيلة نفسها ، لا بد وان تكون من القوة والمرونة ، بحيث تصل الاشارات إلى المستقبل في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، مهما حدث

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر التي تمتاز بها لها من اهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة في الاتصال الجماهيري التي تمكن بها من ادراك معنى الحياة، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هي اللغة .

فوظيفة اللغة في الاتصال الاعلامي ، هي تمثيل الراي العام على مرآة تمكسه ، وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها ، وتنسيقها بحيث تصبح مطية للراي العام ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة وشارة للواقع .

اللغة والقومية :

وقد دلت الملاحظة الحديثة على انه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من المجتمعات ، وتسهل بينها وسائل الاتصال ، تتكون لها مع الزمن « لغة مشتركة » تقرب بينهم ، وتعين اهلها على تفاهم اسرع وايسر ، وتقضى لهم مصالحهم الدنيوية . ولدينا في العصر الحديث امثلة كثيرة للغات المشتركة كالانجليزية المشتركة التي تسود في مناطق انجلترا ، وكالفرنسية المشتركة التي تسود في مناطق فرنسا . الخ (23)

وتتخذ اللغة المشتركة في بدء نشأتها مركزا معيناً يتاح له من الظروف والفرص مالا يتاح لغيره ، فتتطلع اليه المناطق الاخرى ، وتسلم له الزمام في النواحي السياسية ، والاقتصادية والثقافية ، وينزح اليه الناس من كل صوب ، ثم تتبلور عملية الاتصال الى مزيج لغوي منسجم يقبله الجميع ، وهو ما يسمى باللغة المشتركة . ومراكز اللغات المشتركة في العالم هي عادة العواصم التي يتبها لها من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مالا يتاح لغيرها من المناطق (24) .

ولذلك نرى فريقتا من العلماء يذهب الى تفسير اللغة على اساس عقلي او نفسي ، ويرى ان اللغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الانكار ونقلها من شخص الى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة «سايبر» .

يمكننا ان نفسر كلام الفرد الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال هنري دولاكروا : ان اللغة هي دالة الفكر .

والحقيقة ان اللغة ، في عمومها ، ذات وظيفة هامة جدا يمكن ان تلخص في امرين :

الاول : امر فردي : هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .

الثاني : امر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فلما بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة فواضح ان طبيعة التخفيض تبدو في وظيفة كل فرد ، بحيث لا يمكن ان يكون خبازا او ناسجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد ان يعتمد في اموره على غيره من اصحاب هذه المهن ، وان يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم . ولا بد للتفاهم من لغة ، ولو راقب المرء نفسه واحدا من حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فان اللغة اصل وجذر لكل ما يمكن ان نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحساس ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شئ من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، او دين بلا لغة ، او فكرة بدونها ، او احساس لا يترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، او ارادة تقوم بغيرها ، او عمل يتحقق بعيدا عنها .

ان الشركة في كل اولئك ، هي الحياة الاجتماعية ، ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (22) .

(22) مجلة المجلة العدد - العدد 113 - مقال الدكتور تمام حسان - القاهرة .

(23) د . ابراهيم انيس : اللغة بين القومية العالمية - ص : 103 .

(24) مجلة « اللسان العربي » - العدد 6 - 1388 هـ - الرباط - ص : 19 .

ونجد علماء الفلسفة والمنطق ينظرون الى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الافكار ، فيقول الاستاذ جفوتز في كتابه « مبادئ دروس المنطق » : ان للغة ثلاث وظائف :

اولا : كونها وسيلة للتوصيل .

ثانيا : كونها مساعداً آلياً للتفكير .

ثالثا : كونها اداة للتسجيل والرجوع .

وينظر علماء المجتمع اليها باعتبار وظيفتها في المجتمع ، فيعرفها العالم الأمريكى « دجار ستر تننت » بانها : نظام من رموز ملفوظة بواسطتها يتعاون ويتعامل اعضاء المجموعة الاجتماعية المعنية .

ومن ذلك يبين ان تعريف علماء النفس والمنطق يهدف الى ناحية واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة في المجتمع الانسانى لانها لا تقف عند حد التعبير عن الافكار ، وتوصلها للاذهان كما يقول علماء المنطق لان ذلك يقصر وظيفة اللغة على طبقة من الناس هم اهل الفكر حال اشتغالهم بأمور فكرية .

ولا يمكن ان يقال ان اللغة اداة لنقل الافكار ، وانما هى وسيلة للتعاون والترابط بين افراد المجتمع ، فاننا نبتين كثيراً من الناس يتكلمون في موضوعات ، ليس يعينهم منها نقل افكارهم الى غيرهم ، وانما يكون القصد من حديثهم الترفيه والتسلية ، او النظر في امور تخصهم في ادارة شؤونهم (25) .

وبذلك يبدو ان رأى علماء المجتمع بتعريف اللغة تعريفاً يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو خير ما تعرف به اللغة بوجه عام ، واللغة الاعلامية او لغة الاتصال بالجمهور بوجه اخص .

واذا كان ذلك صحيحاً فينبغى ان نشير الى تعريف الاقدمين للغة : وهو انها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (26) . وهذا التعريف للجرجانى وابن جنى ومن الملاحظ ان هذا التعريف قد تمشى مع وجهة نظر علماء الاتصال بالجمهور والباحثين في رأى العام تمشياً دقيقاً لان الاصوات ما هى الا الرموز الصوتية التى تنبع عن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج اليه الانسان في حياته ، سواء كان احتياجاً عادياً كشؤون

الناس في حيثهم المتمشية مع احتياجاتهم في كل اوقاتهم ، والتى يسمى الاعلام الى تحقيقها عن طريق وظائفه الاساسية : الاخبار او الاعلام ، والتفسير او الشرح ، والتوجيه او الارشاد ، والتسلية او الامتاع ، والتسويق او الاعلان ، والتعليم او التنشئة الاجتماعية .. ام كان احتياج الانسان ضرورياً كاحتياج الاعلامى او رجل الاتصال بالجمهور للتعبير عن الافكار القائمة بنفسه لتوصيلها الى اذهان الجمهور .

وعلى ذلك فان اللغة المشتركة ذات اثر قوى في حياة الرأى العام ، لانها السبيل لفهم الاشياء المحيطة بالناس ، والطريق لارتباط الافراد بعضهم ببعض ، والموصل للافكار القائمة بالاذهان والمهيئة لرقى الامم في شتى نواحيها .

واهم صفات اللغة المشتركة انها على حد تعبير « هنرى سويت » - تلك اللغة التى لا يستطيع السامع ان يحكم على المنطقة المحلية التى ينتمى اليها المتكلم . واللغة المشتركة هى في الحقيقة تعبير آخر لما يسميه السياسيون بالقومية . ولذلك لم يكن من المصادفة ان القومية حين بدأت تتخذ شكلها في القرن الثامن عشر لم يكن روادها من العسكريين او السياسيين ، وانما كانوا من العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم ان يتلمسوا ارواح الشعب في الاساطير القديمة ، والاغاني المجهولة الاصل وكانت اللغة في اعمال هؤلاء المفكرين اداة هذه الذكريات والتجارب المشتركة ، والسجل التاريخى . فليست القومية الا تلك الصلة الروحية التى اساسها الافكار والرغبات والشعور ، وكلها تنتقل من عقل الى عقل ، ومن نفس الى نفس في كلمات شائعة وثيقة الاتصال بتلك العقول والنفوس . فالكلام المشترك والتعابير العامة والنغم الكلامى بل المجازات ، كل هذا يتغلغل في نفوس ابناء البيئة الواحدة ، ويصبح المهاد النفسى للشعب ، ثم قد ينفجر في لحظة من لحظات التاريخ ، وينشأ عنه ما يسمى بالقومية (27) -

ولعل « هردير » ، العالم اللغوى ، في اواخر القرن الثامن عشر ، كان اول من نبه الاذهان في كتبه الى علاقة اللغة بنفسية الامة وشخصيتها اذ يقول : « ان

(25) « الخصائص » لابن جنى - 1 ص : 21 - ط الهلال - 1331 هـ .

(26) ابراهيم انيس : « اللغة بين القومية والعالمية » - ص : 104 .

(27) ساطع الحصرى : « ما هى القومية » - ص : 56

اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنتقل بوساطته أفكار الشعب . واللغة سواء قلنا انها خلقت دفعة واحدة من قبل الله ام ذهبنا الى انها تكونت تدريجيا بعمل العقل ، لا يمكن ان نشك في انها الآن تخلق العقل او على الاقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا ، وتسدده وتوجهه توجيهها خاصا . والادب الذي يسود بين الطبقات العليا من الامة يعكس تأثيرات خارجية او اجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل في كل روح الشعب نفسه .

ان لغة الآباء والاجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . ان قلب الشعب ينبض في لغته . ان روح الشعب يكمن في لغة الآباء والاجداد (28) .

ويؤكد الفيلسوف الالماني «فيخته» من بعد «هردر» في اوائل القرن التاسع عشر ، ان اللغة والقومية امران متلازمان ومتعادلان . ان اللغة ترافق المرء ، وتحركه حتى اعماق ادوار تفكيره وارادته هي التي تجعل منا نحن الالمان مجتمعا متماسكا يديره عقل واحد . ان الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من انفسهم كتلة موحدة ، ربطت الطبيعة بين اجزائها بروابط متينة ، وان لم نرها . ان الحدود التي تستحق ان تسمى حدودا طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغات.

نجد بعد ذلك جماعة من المفكرين يتبنون فكرة ان اللغة اساس القومية ، منهم «ماكس نورداو» الذي كان يقول : « ان الفرد يندمج في المجتمع باللغة ، وبها وحدها . باللغة يصبح عضوا في الشعب الذي يتكلمها وباللغة وحدها يتلقى كل التراث الفكري والشعوري والاخلاقي والاجتماعي للامة ، سواء منه ما انحدر عن قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين ، السالفين ، او المعاصرين » .

ويتضح صدق الراي الذي نادى به النظرية الالمانية من ان القومية مرادفة للغة حين نتذكر تلك القوميات التي نشأت في اوروبا خلال القرن التاسع عشر . فقد وحدت المانيا على اساس اللغة وحدتها بعد ان كانت مجزأة الى دويلات كثيرة ، وكذلك وحدت ايطاليا

على اساس اللغة ايضا . وان استقلال بولندا واتحادها قد تم ايضا على اساس ان الناطقين بالبولندية اصحاب قومية واحدة ، وكذلك استقلال اليونان وبلغاريا ورومانيا والباينا ويوغسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، فكل هذه الدول قامت على اساس ان لكل منها لغة قومية متميزة عن غيرها . اي ان تفكك كل من السلطنة العثمانية والامبراطورية النمساوية انما كان بسبب اختلاف اللغات فيها ، فانفصلت عن السلطنة العثمانية الشعوب التي تتكلم بغير التركية ، وانفصلت عن الامبراطورية النمساوية الشعوب التي تتكلم بغير الالمانية (29) .

وشواهد الماضي وتجارب الحاضر في الشرق والغرب تثبت في وضوح ان اللغة على الاطلاق هي اقوى عوامل الوحدة والتضامن بين اهلها ، حتى لقد ذهب العالم اللغوي سابير الى ان اللغة هي على الارجح اعظم قوة من القوى التي تجعل الفرد كائنا اجتماعيا ، ومضمون هذا الراي امران :

الاول : ان اتصال الناس بعضهم ببعض في المجتمع البشري لا يتيسر حصوله بدون اللغة .

والثاني : ان وجود لغة مشتركة بين افراد قوم او امة من شأنه ان يكون هو نفسه رمزا ثابتا وفريدا للتضامن بين الافراد المتكلمين بها (30) .

فاللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع فوحدة الغايات والمبادئ تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للانبياء والامعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشئ او الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

اللغة والاتصال الاعلامي :

الوجود البشري ملتحم باللغة ، فاللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك الناس في كل لحظة ، وترافق المجتمعات في اطوارها التاريخية المتلاحقة ، فيصيبها ناموس التغير الحتمي الذي يجعلها اداة

(28) د . ابراهيم انيس : « اللغة بين القومية والعالمية » - ص : 108 .

(29) د. عثمان امين : « فلسفة اللغة العربية » - ص : 16 .

(30) مجلة « اللسان العربي » - العدد السادس - ص : 19 .

صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز والايحاء ، عن حياة المجتمعات العقلية والحسية ، ومعيارا دقيقا لرقبها او انحطاطها في ميدان الثقافة والعلم والحضارة . وحاول الكاتب الإنجليزي ه . ج . ويلز ، ان يكشف العامل الذي يفضل غيره في حركة التاريخ الانساني . وبدأ بمزية الإنسان الاولى ، وهي الكلام او اللغة اللسانية وجعلها المحور الرئيسي لحركة التاريخ الانساني بأسره . وقسم هذا التاريخ اقساماً رئيسية : الاول : عصر الكلام ، والثاني : عصر الكتابة ، والثالث : عصر الطباعة ، والرابع : عصر الاذاعة . وادخل في اعتباره العوامل المساعدة لهذا المحور الرئيسي ، كاختراع البخار والكهرباء ، واقتراح الطباعة بالانتاج الآلي الكبير .

وليس من شك في ان ويلز كان من المبشرين بلغة جديدة ، وفن اعلامي جديد ، كان من القلائل الذين ادركوا ان التقدم الانساني يسير بخطى سريعة ، وبخاصة في التحكم في الطاقات الهائلة .

على ان ذلك يؤكد ان اللغة لا تعرف التحجر ، وهي قادرة على العمل ، قدرة كلمته ، وهي لا تفنأ بتغيير شكلا ومبنى ، تغير حروفها واصواتها او صيغتها وبنائها او من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى الى آخر ، او تضيف الى معناها معنى آخر جديدا دون ان تترك الاول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقوام التي تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران متلازمان وهما سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل لغة على اخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائل المتبعة لتنمية اللغات واثراء تراثها التعبيري .

الامة البدائية حتما لغتها بدائية وغير مصقولة ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تؤدي المعاني الحسية والمجردة ، فهي المحدودة وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نموا ، تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل سمة لفظا مناسباً (31) .

ان اللغة تمنح الانسان بالاضافة الى وراثته

البيولوجية خطأ آخر للاستمرار ، يجعل الثقافة ، وتراكم المعرفة ، امرا ممكنا .

وقد اتاح العلم الحديث لغة ممكنات ووسائل متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية في صورها النظرية والتطبيقية ، كما اتاح للالفاظ المنوية المجردة طاقات جديدة مالت بها نحو وضوح اكثر ، وتخصيص ادق ، واصبحت الكلمات بفضل تقدم الآداب وفنون الاعلام والاتصال بالجمهور غنية بالمدلولات التي تعمقت في اغوار النفس البشرية وحاجات الانسان حتى صار عدد من الفاظ اللغة عالما من الاشارات والرموز المعبرة عن ادق المعاني المجردة واعمقها (32) .

وكان طبيعيا ان يشتد الاحساس بالحاجة الى لغة اعلامية ، بعد ظهور وسائل الاعلام وتنوعها الى : وسائل مكانية ، ووسائل زمانية ، ووسائل مكانية زمانية .

ويقصد بالوسائل المكانية تلك التي تشغل حيزا في مكان كالصحف والمطبوعات والصور ، والفنون الشبكية ، وهي جميعا وسائل بصرية او منظورة . اما الوسائل الزمانية فهي التي تتسلسل في وقت زمني كالاذاعة والتلفزة والاحاديث المسموعة ، وهي وسائل شفوية او سمعية . وتعتبر الافلام الناطقة ، والتلفزة والمحادثات الشخصية المباشرة ، وسائل مكانية زمانية لانها تشغل حيزا مكانيا ووقتا زمانيا في نفس الوقت ، وهي وسائل سمعية وبصرية .

وادى هذا التطور الى ظهور لغة من نوع جديد ، غير اللغة الادبية بمستواها التذوقي الجمالي ، وغير لغة العلم ، فاللغة الاعلامية الجديدة التي تسعى الى جميع فئات القراء ، الى تحقيق المستوى على الصعيد الاجتماعي للغة .

وبلغ البعض في تأثير الصورة والصوت على الكتابة والطباعة ، وتخيلوا ان عصر التدوين على المنهج القديم قد انتهى ، وان اللغة اللسانية تستعيد مكانتها ، وتعود الى طبيعتها المجهورة ، وبكل ما في الصوت من نبر وايقاع ، وان الصورة تتخذ بدورها مكانها الى جانب اللسان . ويذكر الدكتور عبد الحميد يونس ان هذه

(31) مجلة « اللسان العربي » - العدد الاول - ص : 28 - المغرب - 1381 هـ .

(32) د . ابراهيم امام : المرجع السابق - ص : 199 .

والدليل على ذلك أن كثيرا من الإيمين في مصر يشتررون الصحف ليقرأها لهم بعض المتعلمين ، أو يجتمعون في القاهرة أو الدور الريفية للاستماع الى تلاوة الصحف

اما الوسائل الزمانية السمعية كالإذاعة ، فتتناسب مع التنظيمات اللغوية السهلة والعبارات البسيطة القصيرة ، واذا كانت المطبوعات والصحافة تناسب ذوى الثقافة ، فان الإذاعة تناسب قليلى الحظ منها ، بل والإيمين انفسهم . ولما كان عنصر التعبير عن الشخصية متوافرا في الصوت الإذاعي النابض بالحياة، فانه من الطبيعي ان تتفوق الإذاعة على الصحافة في هذه الناحية . ومن نتائج ذلك ايضا ان الإذاعة من اصلح الوسائل للاستهواء والإيجاء (33) .

ويعلل « دوب » سر القوة الإيحائية بأنها وسيلة سريعة للنشر ، بحيث تتفوق على الصحافة ومعظم وسائل النشر الأخرى ، وبذلك تنفرد الإذاعة بالسبق وأولوية النشر . والاثر الأول للخبر أو الرأي لا يحى بسهولة ، كما تصعب معارضته . والواقع ان الإحساس الجماعى من اهم مميزات الإذاعة . فقد يستطيع المستمع ان يشترك فعلا في البرنامج ، او انه على الأقل يحس وهو في بيته انه عضو في جمهور كبير من المستمعين ، وهذا الإحساس الجماعى يعمق من قوة الاستهواء . ولما كانت الغالبية العظمى من مستمعي الإذاعة من الإيمين ومتوسطى الثقافة ، فان الاستهواء يكون اسرع واقوى اثرا . ولا غرابة ، اذن ، ان تلعب الإذاعة دورا خطيرا في الدعاية السياسية الموجهة الى الشعوب المتخلفة ثقافيا ، كما يقوم بدور رئيسى في الترويج التجارى ، وخاصة في الولايات المتحدة الامريكية . غير ان الإذاعة — والوسائل الزمانية السمعية عموما — لا تمنح المستمع تلك السيطرة القوية على الوسيلة ، التى يتمتع بها قارئ الصحيفة او الكتاب . فالمستمع مقيد دائما بموعد الإذاعة المحددة الذى لا يمكن تغييره . وهو لا يستطيع ان يطلب من المذيع او المتحدث ان يعيد ما يقول ، او ان يقرأ بسرعة معينة تناسبه .

ويتضح لنا من التجارب التى اجراها « بلومر » و « دوب » ان الوسائل السمعية البصرية كالافلام

الجارحة كانت اكثر وسائل الاتصال مرونة ، لانها تستطيع ان تسجل الصور الحسية على اختلافها ان تحكى او ترمز او تشير الى الصور البصرية والسمعية والذوقية ، الى جانب الصور الصوتية بطبيعة الحال. والصحيفة والمجلة واللافئات لها مميزات هامة تجعلها تتفوق على بعض الوسائل الأخرى .

واهم هذه المميزات ان القارئ او المشاهد يستطيع السيطرة على الوسيلة بطريقة تلائمه ، فالقارئ مثلا : في حالة الصحيفة او الكتاب يستطيع ان يقرأ بالسرعة التى تناسبه ، كما يتمكن من اعادة ومراجعة ما قرأه في اى وقت يشاء . لذلك كانت هذه الوسائل البصرية المكانية صالحة لنشر الموضوعات المعقدة ، والدراسات الصعبة ذات التفاصيل المتشعبة . وغنى عن البيان ان هذه المطبوعات وغيرها من الوسائل البصرية تمكن الناس من التقد المدروس ، والعناية بالتفاصيل الدقيقة. فلا غرابة اذن ، ان تتفوق هذه الوسائل في التمييز عن الدراسات الدقيقة والموضوعات الطويلة ، ذات التفاصيل الكثيرة .

ومن اهم مميزات الوسائل المكانية البصرية ايضا ، انها تخدم الأذواق المختلفة ، وتعتبر عن الاتجاهات المتعددة . فمن الممكن مثلا ان تصدر الاقليات صحفا لها ، كما يمكن للجمعيات المختلفة ان تسجل نشاطها في صحف ومجلات خاصة بها . ومن الثابت ايضا ان الاتجاهات المتطرفة ، والحركات الثورية ، والمذاهب الجديدة لا تجد خيرا من النشرات والمطبوعات الخاصة للتعبير عن مبادئها وآرائها .

ويندر ان تستعمل الوسائل الأخرى كالإذاعة في مثل هذه الاحوال وتتمتع وسائل الاعلام المكانية البصرية باحترام عظيم وثقة كبيرة في معظم دول العالم ، بحيث تتفوق بذلك على الوسائل الأخرى . ومع ان التجارب التى اجريت في مصر وسوريا والاردن ولبنان مجتمعة، فقد اثبتت ان 63 % من الجماهير العربية تفضل الإذاعة على الصحافة ، فقد كانت النتيجة عكس ذلك بالنسبة لمصر وحدها . ولا شك ان مرد ذلك الى تاريخ الصحافة المصرية الحافل بمواقف الجهاد الوطنى المشرف .

(33) د . ابراهيم امام : المرجع السابق — ص : 199 .

وذى الرمة اعتمد خلفاء بنى امية فى كثير من قضاياهم السياسية .

ثم فى العصر العباسى ظهرت عصبية من نوع آخر اسمها « الشعوبية » وحلت محل العصبية القبلية . وتحمس الشعراء الشعوبيون للامم او الاجناس التى ينتمون اليها . كما ظهرت فى العصر العباسى عصبيات وخطباء يذودون عنها ضد الفرق الاخرى .

اما فى المذنيات الحديثة ، فنجد جماعات بصرية كبيرة ، نتيجة للاعتماد على الصحف والمطبوعات والافلام وغيرها . ويبدو ان التقدم الحديث فى فنون الاذاعة سيعيد التوازن مرة اخرى بين الاتجاهات السمعية والبصرية .

والبقاء او الدوام مقياس آخر لتقويم وسائل الاعلام المختلفة . فالكتب اطول وسائل الاعلام بقاء ، وتشهد بذلك تلك الدور الخالدة فى الآداب والفنون والعلوم المختلفة . واذا اعتبرنا فن العمارة وسيلة من وسائل الاعلام — وانه كذلك — لكانت الاهرام والآثار المصرية والمساجد الاسلامية العريقة من اخلا هذه الوسائل جميعا . وتحل الافلام المرتبة الثانية بعد الكتاب من حيث البقاء ، ثم تاتى المجلات التى تتمتع بحياة اطول من الصحف قصيرة العمر ، واقل وسائل الاعلام بقاء هى الاذاعة والتلفاز ، فلا تكساد تترك اثرا باقيا بعد النشر . ومع ذلك فينبغى الا يقلل من قيمة الاذاعة والتلفاز لانهما يؤيدان واجب الاعلام السريع ، والاستهواء العاجل بالنسبة للاطفال ، وتقليل الحظ من الثقافة ، اما الكتاب والمجلة والصحيفة فهى من اصلح الوسائل لمعالجة المعانى الصعبة ، والمبادئ الفلسفية ، والافكار المعقدة بوجه عام .

وسواء كان النمط الاتصالى شخصيا او جماعيا او جماهيريا ، فثمة حقيقة واقعة ، وهى ان عملية الاتصال الاعلامى فى جميع انماطها ، تتوقف على انتقال الرموز ذات المعنى ، وتبادلها بين الافراد ، كما ان اوجه النشاط الجماعية ، ومعانيها الثقافية ، تتوقف الى حد كبير على الخبرات المشتركة من المعانى والاتصال ، فى جوهره ، هو نقل المعانى عن طريق الرموز المتعارف عليها ، والتى يستخدمها الانسان من اجل التوافق النفسى مع العالم الخارجى . فالرموز هى جوهر وسائل الاعلام وعمودها الفقرى وبدونها لا يمكن ان تعمل .

الناطقة والتلفزة ، تمتاز بتاثيرها القوى ، بحكم واقعية الصورة وحيويتها مقترنة بالصوت المعبر الذى يزيد الصورة قوة وحيوية . ومع ان نتائج اباحث هذين العالمين تشير الى ان الوسائل السمعية البصرية تتفوق على الوسائل الاخرى فى درجة تذكر الافراد المعرضين لها ، فان هذه النتائج لم تثبت بعد بصفة مؤكدة .

اما التجارب التى اجراها « ستودارد » و « هول وداى » فقد اثبتت ان الوسائل البصرية تمتاز بقدرتها الفائقة على الاستهواء . ويؤكد معظم العلماء هذه النتائج بالنسبة للاطفال ، فهم يصدقون كل ما يرونه فى الافلام ، حتى انه ليصعب جدا تعديل التأثيرات الناتجة عن المشاهدات عند بعضهم . وغنى عن البيان ان عادات المثلين على الشاشة — كالتدخين او اختيار ازياء معينة — سرعان ما تشر بين المراهقين وغيرهم من شديدي الحساسية للاستهواء .

والافلام من الوسائل القوية التى تتناسب مع المثقفين وغير المثقفين . كما انها تنجح بالنسبة للاجانب ، الذين لا يجيدون لغة الفيلم اذ يمكنهم متابعة تسلسل الموضوع من خلال الصور وحدها ، ومن الثابت ان واقعية الفيلم تزداد كثيرا باستعمال الالوان . اما التذكر عن طريق الوسائل السمعية البصرية فهو اقوى بكثير من التذكر عن طريق الوسائل الاخرى . ولكن هذه النتيجة الاخيرة لا زالت موضع المزيد من التجارب العلمية وغيرها (34) .

وليس الامر مقصورا على المميزات الطبيعية وحدها بل ان العادات والتقاليد والاساليب الحضارية ، لها تاثيرها القوى على تكوين الجماعات السمعية او البصرية . فقبل ظهور الطباعة كان الرواة والمنشدون وغيرهم يقومون بعمل الصحافة ودور النشر الحديثة ، وكانت الجماعات سمعية بحكم الحضارة والتقاليد .

ف عند العرب كانت القصيدة الشعرية الاداة الوحيدة للتعبير عن راي القبيلة فى العصر الجاهلى . فلما جاء الاسلام لعبت قصائد حسان بن ثابت دورها فى مناصرة صاحب الدعوة . ثم فى عصر بنى امية وجد ما يسمى « بالشعر السياسى » . وعلى الشعراء السياسيين من امثال جرير والفرزدق والاخلط والراعى

(34) د . ابراهيم امام : نفس المرجع — ص : 205 .
J.T. Klapper, "The Effects of mass media".

الفصل الثاني

اللغة والاتصال بالجمهور

تعتبر مشكلات اللغة من المسائل الرئيسية الهامة في الدراسات الانسانية ، ان لم تتجاوزها بالتخطي الى الاهمية المطلقة .

والتعريف الشائع للغة هو انها مرآة تعكس الفكر ان وسيلة للتعبير عن الافكار وتوصيلها او تبادلها ، اذ يعرف « هنرى سويت » اللغة في كتاب « مدخل تاريخ اللغة » بأنها « التعبير عن الفكر عن طريق الاصوات اللغوية » كما يعرفها العالم الامريكى « ساير » في كتابه « اللغة » بأنها « وسيلة لتوصيل الافكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام رموز يستخدمها الفرد باختياره » .

على ان احدث تعريف للغة هو ذلك الذى وضعه العلامة « جبرش » في كتاب « فلسفة النحو » : « تكمن روح اللغة في نوع من النشاط الانسانى ، نشاط من جانب فرد يجد في افهام نفسه لشخص آخر ، ونشاط من جانب هذا الشخص الآخر بفرض فهم ما كان يجرى في ذهن الشخص الاول » .

ولكن علم الاتصال بالجمهور بوصفه عملية اجتماعية هامة ، هو العلم الذى يدرس هذه الظاهرة دراسة منظمة تعتمد على المنهج التجريبي ، وتقوم على تكوين الفروض العاملة والملاحظة و اجراء التجارب والقياس . وقد هيات ظروف الحربين العالميتين فرصة سانحة لدراسة اساليب الاتصال ، وفنون التأثير التى ما كان يمكن ان تتاح على نطاق واسع لولا هذه الظروف ، ففيها استطاع العلماء اجراء تجارب علمية على الجنود والمدنيين لمعرفة مدى تأثرهم بالاتصال . وقد خرجوا من دراسة الحصالات و اجراء التجارب ، بمجموعة من النظريات التى تربط بين عدد من الوقائع حتى بلغ هذا العلم مستوى رفيعا (35) .

ويعتمد علم الاتصال بالجمهور على عدد كبير من البحوث التى اجريت في العلوم الاجتماعية الاخرى

واهما علم النفس ، وخاصة علم النفس الاجتماعى ، وعلم الاجتماع ، وعلم الانسان (الانثروبولوجيا) ، وعلم السياسة . فضلا عن علوم الاقتصاد والتاريخ واللغات . ولا شك ان دراسة علم الدلالة قد اثر اثرا كبيرا ، بفهم حقيقة الرموز ودلالاتها الصياغية الاتصالية . ونظرا لاعتماد علم الاتصال بالجمهور على سائر هذه العلوم الاجتماعية ، فقد رأى البعض ان هذا العلم ليس علما مستقلا او قائما بذاته ولكنه عبارة عن مجموعة من الدراسات المتعددة . ومما لا شك فيه ان ظاهرة الاتصال بالجمهور هى الموضوع الرئيسى للمستقبل الذى يدرسه هذا العلم دراسة منهجية ، ولا يتقص من شأنه واستقلاله استعماته بالعلوم الاخرى التى تتصل بجوانب متعددة من هذه الظاهرة الهامة .

اللغة عند افلاطون وارسطو :

ومع ان علم الاتصال بالجمهور من احدث الدراسات التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، فان عملية التأثير والاقناع ، كانت دائما موضع دراسة عميقة وجادة منذ اقدم العصور ، حتى لنجد الكتب المقدسة تتحدث عن الكلمة فيقول الانجيل بأنه في الاصل « كانت الكلمة وكانت الكلمة هى الله » ، كذلك يقول القرآن : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » .

وقد تطور افلاطون وارسطو بهذه النزعة الروحية في تفسير نشأة اللغة فعنيا عناية فائقة بدراستها ، وهى من الموضوعات الهامة في علم الاتصال . فيذهب افلاطون الى ان اللغة الهام ومقدرة فطرية يكتسبها الانسان منذ الخلق . وقد نهج بادئ ذى بدء نهجا خاصا عبر به فرأى ان لا سبيل الى فهم الحقيقة اللغوية الا بالنظر في اللفظ الاولى في لغات عدة ، ولذا فقد رأى ان النظر في اللغات الاخرى للشعوب المختلفة امر ضرورى للوصول الى الهدف المنشود . ويدرك

(35) د . ابراهيم امام : « الاعلام والاتصال بالجمهور » - ص : 35 .
Sapir, "Language", Harcourt Brace, N.Y. 1921, p. 23

افلاطون صعوبة المحاولة ويقرر ان السبيل اليها هو معرفة اللغات الاخرى .

على ان افلاطون يرى ان الالفاظ تساعد على التوضيح وان الفكر لا يتولد من اللغة ، ولكن اللغة هي التي تتولد من الفكر . فلكي نسمى الاشياء باسمائها لا بد لنا من ان نعرفها اولاً .

اما ارسطو فقد مثل النزعة الاخرى حين يتنازل موضوع الاتصال بطريقة مباشرة في كتابه « الخطابة » فاتجه بالدراسة اللغوية اتجاها مختلفا عن اتجاه افلاطون ، فلما ان اللغة لا يمكن ان تكون الهاما وموهبة انسانية . وان اللغة نظام لفظي محدد نشأ نتيجة اتفاق بين افراد المجموعة البشرية في مكان ما .

وقد كان ارسطو اقرب من افلاطون في الاخذ بالنظر العليسى ، فنقسم الالفاظ الى اسماء ، وافعال ، وحروف ، وتحدث عن موضوعات لغوية منها التفكير والتأنيث واليسيط والمركب .

ولآراء ارسطو في اللغة مكائنتها التاريخية في علم الاتصال بالجماهير ، حين يؤكد ان « الخطابة هي القدرة عن النظر في كل ما يوصل الى الانتفاع في اية مسألة من المسائل » . ذلك ان الخطابة او البلاغة باعتبارها قوة مؤثرة في الجماهير هي محور ودراسة علم الاتصال الجماهيري الحديثة ، فارسطو يقسم الموقف الاتصالي الى ثلاثة عناصر .

هي الخطيب او المرسل ، والجمهور او المستقبل ، والخطبة او الرسالة ، مع ضرورة فهم الخطيب لرسالته وجمهوره على السواء . وهذا هو ما ظهر تماما في الدراسات الحديثة .

الدراسات الإسلامية :

وقد تأثر العرب بهذا العلم الاغريقي وقراه مترجما على يد الآراميين والسرمان . ومن العجيب انهم لم

يتأثروا بالتفكير الهندوكى اللغوى بالرغم من اتصالهم بهم (36) . ومن هنا انطبعت الدراسات اللغوية العربية بطابع من افكار الاغريق ودراساتهم التي يغلب عليها طابع الفلسفة (37) .

وقد كان المسلمون يطلقون على الدعاية والاتصال بالجماهير تسمية « الجياسة » (38) كما ورد في « مروج الذهب » للمسعودى عند ما يقول :

« وقد بلغ من احكام معاوية السياسية واتقانه لها واجتذاب قلوب خواصه واعوانه .. الخ » ويقصد بذلك تأثير معاوية في الجماهير عن طريق الرواية والدعاية . وقد بلغ به الامر الى حد تزييف الاحاديث ، واختلاق الروايات ، وتلفيق المواضع التاريخية من اجل التحكم في نفوس الجماهير .

ومن يتتبع تاريخ الطبرى وابن الاثير يستطيع ان يتقف على تفاصيل الدعاية الاسلامية في العصرين الاموى والعباسى . كما يتضح دور الفرق الاسلامية المختلفة من اهل السنة والمعتزلة والشيعة في الدعاية السياسية والدينية معا (39) .

ويتناول الجاحظ موضوع التأثير في الجماهير في كتابه « البيان والتبيين » : ومتى شاكل ابقاك الله — ذلك اللفظ معناه ، واعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك اقدر لفتا وخرج من ساحة الاستكراه ، وسلم من فساد الكلف كان قمينا بحسن الموقع ، وانتفاع المستمع ، واجدر ان يمنع جاتبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به مغمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ ايضا كريما في نفسه ، متخيرا في جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبيب الى النفوس ، واتصل بالانذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على السن الرواة ، وشاع في الامم ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مداة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتطم المريض .

- (36) ابراهيم السامرائى : « التطور اللغوى التاريخى » — ص : 11 .
(37) د . عبد الرحمن ايوب : « اللغة والتطور » — ص : 16 .
(38) د . ابراهيم امام : « الاعلام والاتصال بالجماهير » — ص : 39 .
(39) د . ابراهيم امام : « الاعلام والاتصال بالجماهير » — ص : 29 .

« المورفولوجيا التعليمية » اى « علم البنية التعليمية » (43) .

وبذلك وجد السبيل لدراسة الفرع الجديد الذى عرفناه « بعلم الصرف » .

واتجهت الدراسات العربية كذلك الى موضوع يتصل بعلم الاتصال عن قرب ، على النحو الذى وجدناه لدى ارسطو ، وهذا الاتجاه هو المعروف « بعلم البلاغة » التى تضم المعانى ، والبيان ، والبديع . وعلم المعانى يبحث فى بيان ما ينبغى ان يكون عليه الاسلوب العربى ليطابق مقتضى الحال وليعبر عن المراد ابلغ تعبير ، اما البيان فهو العلم الذى يشرح المناهج التى يسلكها الاسلوب العربى فى استخدام التشبيهات والمجازات والكتابات ، والبديع يدرس المحسنات المعنوية واللفظية التى يحتلها الاسلوب العربى وموضوعات البحوث الثلاثة ، كما نرى تبحث فى اللغة الاتصالية ، على النحو الذى تتجه اليه علوم الاتصال بالجمهير ، وهى من جهة اخرى « ترجع الى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة « الستيلستيك التعليمية » اى « علم الاسلوب التعليمى » .

وقد عنى المتقدمون بالكتابة فى بعض هذه المباحث « كمجاز القرآن » لابي عبيدة ، و « اعجاز القرآن » للجاحظ ، ثم برزت الكتابة فى هذه العلوم فى مؤلفات تضمها جيبعا « كالصناعتين » لابي هلال العسكري و « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجاسى .

وفى الاتجاه الثالث نجد العلماء العرب يبحثون فى الكلنة العربية من حيث نطقها وادائها ، لبيان الوجوه التى قرئ بها القرآن الكريم . وقد اشتملت مؤلفات الباحثين فى القراءات على بحوث دقيقة قيمة فى اصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وانواعها ومخارجها ، والفن وضروبه ، وتأثر اصوات الكلمة المتجاورة بعضها ببعض .. وما الى ذلك من مسائل « الفونيتيك » الخاصة باللغة العربية (44) .

فاذا اراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يحصى ، وينصح ولا يغش ، وكان مشغوفا بأهل الجماعة ، شغفا لاهل الاختلاف والفرقة ، رجعت له الحظوظ من اقطارها ، وسيقت اليه القلوب بأزمته ، وجمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته ، وجبلت على تصويب ارادته ، ومن اعاده الله من معرفته مضيئا وافرغ عليه من محبته ذنوبا حنت اليه المعانى وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع من كد الكلف ، وراح قارئ الكتاب من علاج التفهم (40) .

وعنى الباحثون العرب بدراسة لغتهم ، بعد نزول القرآن ، واتساع الفتوحات ، وخاصة بعد قيام الدولة العباسية ، فجددوا انفسهم للعناية بالمرور اللغة حرصا على كتاب الله ، فاتجهت الدراسات اللغوية فى اتجاهات عدة ، واهتدى الباحثون لمسائل دقيقة فيها قال الفراء :

وجدنا للغة العرب فضلا على لغات جميع الامم اختصاصا من الله تعالى وكرامة اكرمهم بها ، ومن خصائصها انه يوجد فيها من الايجاز ما لا يوجد فى غيرها من اللغات (41) .

ويبرز الاتجاه الاول فى عناية الباحثين العرب بما يسميه علماء الغرب « بالسنتكس التعليمى » اى « علم التنظيم التعليمى » (42) او « علم النحو » الذى بدأ يظهر على يد الباحث اللغوى ابي الاسود الدؤلى ، وظلت العناية موجهة فى هذا الاتجاه الى نهاية القرن الاول الهجرى ، ثم اخذ نطاق البحث يتسع ، فدرست موضوعات كثيرة متصلة باجزاء الكلام ، وتبيان صلة اجزاء الجملة بعضها ببعض ، وطريقة ربطها بعضها ببعض ، واقسام الكلمة ووظيفتها فى الدلالة . كما اخذ العلماء العرب فى هذا الاتجاه يدرسون المسائل المتعلقة بضبط القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات العربية وتصريفها وتغيير ابنيها بتغير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التى يطلق عليها الغرب

(40) « البيان والتبيين » - ج 3 - ص : 20 .

(41) القلتشندى : « صبح الاعشى » ج 1 - ص 149

(42) د . وافي : « علم اللغة » - ص : 53 .

(43) المرجع السابق - ص : 53 .

(44) المرجع السابق - ص : 56 .

واتجهت جهود الباحثين العرب في الاتجاه الرابع الى البحث في اشعار العرب فجمعتها ونقبت عن معانى الغريب في مفرداتها هادفة من وراء ذلك الى فهم كتاب الله .

ويدلنا على ذلك ما روى (45) عن ابن عباس رضى الله عنه بهذا الصدد :

الشعر ديوان العرب ، فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى انزله الله رجعنا الى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه . وقال ايضا : « اذا تعاجم شئ من القرآن ، فانظروا في الشعر ، فان الشعر عربى » .

وعنى الاتجاه الخامس « بمتن اللغة » والذى تفرعت منه ثلاثة اقسام ، عنى الاول منها بوضع معجمات تهدف الى شرح المفردات ، واول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن احمد صاحب كتاب « العين » .

وعنى القسم الثانى بوضع معجمات ترمى الى بيان المفردات الموضوعة المختلفة المعانى ، وترتيب المعانى بطريقة خاصة ، وذكر الالفاظ التى تقال للتعبير عن كل معنى منها ككتاب « الالفاظ » لابن السكيت ، و « الالفاظ الكتابية » للهدانى ، « وفقه اللغة » للثعالبى .

اما القسم الثالث فقد عنى بتأليف رسائل خاصة فى الالفاظ او المعانى ، ككتاب ابى حنيفة فى الانواء والنبات ، وكتاب يعقوب فى النبات والاصوات والفرق ، وكتاب الاضداد فى اللغة للانبارى .. الخ

واتجه البحث اللغوى عند العرب - فى الاتجاه الاخير - الى « فقه اللغة العربية » وبعض مسائل من علم اللغة العام (46) .

فمن ذلك دراسة الاصمعى للاشتقاق فى اللغة العربية ، ومعظم البحوث التى ضمنها ابن فارس فى كتابه « الصحابى » فى فقه اللغة وسوق العرب فى كلامها كبحثه فى خصائص اللسان العربى ، والقياس والاشتقاق .. الخ ، والبحوث التى ضمنها ابن جنى

فى كتابه « الخصائص » كبحثه فى اصل اللغة وهى هى الهام ام اصطلاح .. وهلم جرا ،

ومن ذلك يبين ان الدراسات اللغوية عند علماء العرب باتجاهاتها المختلفة ، افادت فى دراسة اهم عناصر العملية الاتصالية ، ونعنى اللغة ، حيث نتعرف على تطور اللفظ ، والاساليب والعوامل التى اثرت فى تطور الاساليب اجتماعيا ونفسيا وجغرافيا .

وقد وجدنا ان الفارابى (47) المعروف فى التاريخ بالمعلم الثانى بعد ارسطو وعبد الرحمن بن خلدون قد اسهما فى دراسة دور الاتصال فى المجتمع . كما قام الجاحظ بدراسة شيقة للخطابة والتأثير فى الناس . ويتحدث الفارابى فى « آراء اهل المدينة الفاضلة » عن عوامل تمسك الجماعة ودور القيادة فى ذلك ، وهو يقسم الجماعات الى قسمين : جماعات صغيرة تتماسك بطول التلاقى والاشتراك فى الطعام والشراب ، والاشتراك فى شر يداهمهم وخاصة اذا كان نوع الشر واحدا وتلاقوا ، فان بعضهم يكون سلوة بعض ، والاشتراك فى لذة ما . اما القسم الآخر فهو الجماعات الكبيرة التى تتماسك بالاشتراك فى اللغة واللسان ويتشابه الشيم والخلق .

ويذهب ابن خلدون فى مقدمته الى تحليل التماسك والاختلاف بين الشعوب والمجتمعات على اسس اجتماعية ، ويرفض ما ذهب اليه المسعودى من اسباب تتصل بتركيب الانسجة . ولعل هذا الاتجاه الذى يربط بين العوامل النفسية والاجتماعية فى تحليل السلوك هو نفس الاتجاه الحديث الذى يرفض التعليلات الغيبية والافتراضات المتصلة بالفرائز ، والعوامل البيولوجية العتيقة . وحين يتحدث ابن خلدون عن التعلم يقترب كثيرا من المحدثين وخاصة السلوكيين اذ يقول :

« لان الانفعال لا بد من عود آثارها على النفس ، فانفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء ، وانفعال الشر والسفسفة تعود بغير ذلك فنتمسك وترسخ ان سبقت وتكررت ، وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارهم المضمومة فى النفس ، شأن الملكات الناشئة عن افعال » .

(45) « تفسير القرطبي » - ج 10 - ص : 129 .

(46) د . وافي : « علم اللغة » - ص : 59 .

(47) الفارابى - ابو النصر : « آراء اهل المدينة الفاضلة » - القاهرة 1948 .

اللغة في ضوء البحث الحديث :

« اللغة ودراستها » و « حياة اللغة وتطورها ».

وقد جنح هذا الأخير باتباع مذهب دارون في التطور فكانت اللغة عنده من الكائنات الطبيعية التي يعرض لها التطور ، فبدأ بدراسة لغة الحيوانات على أنها تؤلف مرحلة مبكرة من مراحل تطور اللغة الانسانية ، ذلك ان اولى محاولات التحليل اللغوى في العصر الحديث ارتبطت بقيارات الفكر العلمى التى سادت القرن التاسع عشر . ومن ثم فقد ظهرت تلك المحاولات في اطار علم اللغة المقارن .

ومن جهة اخرى فقد عالج توماس هوبز الذى عاش في انجلترا في القرن التاسع عشر مسائل التفاعل الاجتماعى عن طريق الاتصال واستخدام اللغة وذلك في كتابه « التنين » ويقول هوبز ان التجمع ليس صفة مقصورة على البشر ، فهناك تجمعات النمل وخلايا النحل التى تتصف بالتماسك ودقة العمل.

ثم يقول ان اهم ما يميز التجمعات البشرية عن التجمعات الحشرية هو وجود لغة ذات الفاظ تمكن الفرد من ان ينقل الى الآخرين افكاره وآراءه بما يرى انه الصالح العام لهذا التجمع فاذا كان الاتصال بين الحشرات قائما على مقتضيات المواقف الجزئية المباشرة ، فان الاتصال الانسانى على العكس من ذلك قائم على استخدام الرموز والالفاظ للتعبير عن الافكار والآراء . فليس غريبا ان الانسان وهو الحيوان الناطق، وهو ايضا الحيوان الذى يحارب بالفكر والعقيدة والدعاية والسلاح . ولذلك يتطلب الامر وجود قوة تتمثل في الدولة او الحكومة التى تنظم الاطعام ، وتنسق الافكار ، حتى لا تعم الفوضى ويذهب الناس في سيلهم شتى .

وفي سنة 1860 ، بدأ اثنان من الباحثين هما لازاروس ، وستينثال نشر بحوث متصلة بعلم النفس لا شعوب ، وفيها دراسات عن اسباب الشعور المتماثل لدى الافراد ، وهى الروح العامة التى تظهر في اللغة والاساطير والدين والتراث الشعبى ، والفن والادب ، وقواعد الاخلاق السائدة ، والعرف والتانون . ويبدو ان ستينثال قد وقع تحت تأثير الدارونية ، وقولها بوجود قوانين عامة تحكم التطور ، ولعل ذلك ما دفعه الى تجاهل الفرد وميوله النفسية وقوله بوجود سيكولوجية

ظلت البحوث اللغوية في اوربا حتى اواخر القرن الثامن عشر الميلادى محصورة في دائرة ضيقة وتعدو كثيرا مسائل علوم البنينة والتنظيم والاسلوب (المورفولوجيا والسنتكس والسيتيلستيك) في اشكالها التعليمية (48) .

ولما بدأت النهضة الاوربية في اواخر ذلك القرن ، واطلع العلماء على العلوم العربية مترجمة الى لغاتهم بدأ الإهتمام بالدراسات اللغوية ، حين بدأ علم اللغة المقارن على يد السير وليام جونز احد قضاة الانجليز في الهند والذى لاحظ الشبه القوى بين اللغة السنسكريتية واللغة الاغريقية واللاتينية ، هذه اللغات جميعها صدرت عن اصل واحد .

وكان من اشهر من افتتح هذه السبيل فون شليجل الذى قرر ان الوسيلة الوحيدة لاثبات العلاقة بين افراد مجموعة لغوية هى مقارنة قواعدها وتراثيها لا مجرد جمع المفردات المشتركة بينها .

وقد توالى الدراسات اللغوية فتمكن العالمان بوب وجريم من التوصل الى قوانين في تلك اللغات مثل القوانين في اللغات الهندية والتى جعلت اساسا للدراسة اللغوية الى هذا الوقت . وكان ذلك ايدانا بالتوصل الى دراسة القواعد دراسة مقارنة مهدت بدورها الى بحوث علم القواعد التاريخى التى قام بها جريم ودييز وبراشيه وماكسى مولر وغيرهم . وقد اسدى هذا المنهج المقارن في دراسة اللغة خدمة جليلة في بيان طبيعتها ، وخرج بعلم اللغة الى مرحلة البحث الدقيق ، وكشف لأول مرة عن وجود ما اطلقوا عليه اسم « القوانين الصوتية » وظهر علم الاصوات التشريحي على يد مولر ، وقد تهيأ لهؤلاء العلماء ان ينتهوا الى طريقة في الاصوات تغير الحروف اللاتينية.

كما اثر هذا المنهج المقارن النهوض بمختلف الفروع اللغوية لقيام طائفة متخصصة بكل ناحية دراسية ، وظهر علم اللغة العام وقد كتب فيه ماكس مولر محاضرات في علم اللغة وقد نشر سنة 1861 . كما جاء في كتاب الامريكى Whitney فى كتابين فى نفس الموضوع هما :

(48) د . وافي : « علم اللغة » - ص : 40 .

جماعية - او عقل جمعى - هى التى تتمثل فيها النزاعات والميول النفسية الاجتماعية .

ويرى هيرمان باول ان علم النفس الاجتماعى بالمعنى الذى ذكره ستينثال لا يشمل هذه العناصر كلها بل يقتصر على العنصر الاول . كما يقرر ان اللغة هى اهم الادوات التعبيرية التى تستعمل فى المراحل الثلاثة التالية : لادراك الفرد فكرة من الافكار نشأت لديه بفضل كونه عضوا فى جماعة ، وهى :

1 - يقوم الفرد بنشاط عضو يؤثر فيها حوله من اشياء او ادوات تعبيرية .

2 - تنتقل هذه الاشياء والادوات الى فرد او افراد سواه .

3 - يقوم الآخرون بنشاط مادي يؤثر على بعضهم البعض تأثيرا قد يفيدهم ، ولكنه ينسجم مع مقتضيات ثقافتهم .

وقد استطاع « فونت » ان يفسر مدى تدخل التركيبات الذهنية الناشئة عن الانطباعات الماضية فى تشكيل عملية الادراك .

ومن المعروف ان دراسات الاتصال الحديثة تعنى عناية فائقة بانثر هذه الانطباعات المترسبة التى تكون الانماط والتصورات الذهنية على ادراك المفاهيم الجديدة . لان الافكار لا تنشأ فى ذهن الفرد مستقلة عن تراث جماعته ، وذلك لانه بالرغم من ان تجارب كل فرد هى التى تخلق فى ذهنه افكاره الا ان للقيم الاجتماعية دخلا كبيرا فى الحكم على امر ما بالخير او بالشر وبالجمال او القبح كما ان ثقافة المجتمع هى التى تحدد للفرد معالم افكاره .

وبعد ذلك اصبح موضوع الايحاء والقابلية للتأثر او الاستهواء من اهم الموضوعات التى عالجهما كبار المفكرين من امثال جوستاف لوبون (49) وجبريل تارد . وقد اهتم لوبون بدراسة سيكولوجية الجماعات فى كتاب روح الاجتماع وكان متأثرا بالدراسات السابقة فى الايحاء . والجديد فى كتاب لوبون انه شرح التفاعل بين الفرد والجماعة وتبادل التأثير بينهما . ويقرر لوبون

ان تكون الجماعة لا يتطلب وحدة المكان ، وكثرة العدد ولكن المهم هو اتجاه المشاعر والمواطف والافكار نحو هدف واحد ، ذلك ما يقوم به الاتصال الجماهيرى .

وبينما يؤكد لوبون اهمية الايحاء فى التأثير الاجتماعى ، نجد ان تارد يذهب الى ان المحاكاة هى اساس التفاعل الذى يتم فى الجماعة . والوسيلة الرئيسية للمحاكاة هى اللغة ، فهى الاداة الاولى لنقل كثير من المعاديات والتقاليد ، ولنقل الخبرات على اختلاف مستويات تنظيمها عبر الاجيال وعبر الجماعات والافراد . فكان المحاكاة هى القوة الكامنة وراء الاتصال بالجماهير .

اللغة نظام من الرموز :

كان الباحث السويسرى فرديناندى سوسر (1857 - 1913) نقطة تحول حاسمة فى تاريخ البحث اللغوى الحديث . فقد كانت رؤيته الواضحة لجوانب كثيرة من بنية اللغة منارا امام تلاميذه واجيال الباحثين من بعده .

فقد ذهب دى سوسر الى ان اللغة نظام من الرموز ، تتكون من الوحدات المترابطة المتكاملة فى نظام رمزى ، ولذلك حاول ان يخلق نوعا من التوازن بين الاتجاه التاريخى والاتجاه الوصفى الواقعى ، واخذ على اصحاب الاتجاه التاريخى انهم قد اهلوا - الى حد كبير - دراسة اللغة من واقع نشاط متكلميها الذين يعيشون بين ظهرانهم . ومن ثم فقد حرصوا انفسهم من دراسة هذا الجانب الحى . كما انهم كثيرا ما يدخلون العوامل التاريخية فى احكامهم على اللغة الواقعية . وهذا لا يتيح ادراك طبيعة اللغة ، فالتسلسل التاريخى للحقائق اللغوية لا وجود له من وجهة نظر المتكلم الذى يواجه وضعا لغويا ثابتا . ويستطيع الباحث ولا شك ان يصل الى اعماق ذهن المتكلم مع تجاهل ماضيه اللغوى تجاهلا تاما (50) .

كذلك قسم دى سوسر ظواهر اللغة فى وقت ما الى عناصر موروثية وعناصر مبتكرة . والعناصر الموروثة هى التى يسميها Langue اولسان ويعنى بذلك لغة

(49) « روح الاجتماع » - ترجمة احمد فتحى زغلول - القاهرة 1909 .
(50) ص : 76 وما بعدها من الترجمة الانجليزية لكتابه .
Course in general linguistics

الاتصال وجماعات الرأى كالأحزاب السياسية والجمعيات الدينية وغيرها الى التأثير فيها .

ويؤكد ليمان ان تصرفات الناس لا تكون نتيجة للملاحظات موضوعية عن العالم الخارجى ، بل تكون فى حقيقة الامر مبنية على التصرفات الذاتية او الصور الذهنية الكامنة فى نفوس الناس . وهذه لا تتكون بطريقة الملاحظة الموضوعية ، ولكنها تتكون نتيجة الاتصال الشخصى بالناس والاصدقاء ، والاتصال الجماهيرى بالصحف والاذاعة المرئية والمسوعة ، وفى اغلب الأحيان تتكون من تفاعل هذين النوعين من الاتصال .

فالمؤثرات التى تحيط بالانسان لا تكون السبب المباشر فى الاستجابة للبيئة ولكن معنى هذه المؤثرات او صورتها فى ذهن الانسان ، هى التى تحدث الاستجابة. ولما كانت البيئة الموضوعية اعظم واعبق من ان تفهم فيها مباشرة ، فلا بد للانسان ان يبسطها ويختصرها فى شكل صور او رموز يستجيب لها فى بساطة وامان. وهكذا يكون الفرد عالماً خاصاً له ، كما تكون الجماعة عالماً خاصاً لها . ولا شك ان الاتصال هو الذى يلعب اهم الادوار فى تكوين هذه البيئة الثقافية التى تتكون من مجموع المفاهيم والصور والأيخلة .

ويقول ليمان ان الصور التى تتكون فى اذهان الجماهير تكون بعيدة عن الحقيقة الموضوعية ، ويرجع ذلك فى نظره الى عدة عوامل اهمها الرقابة على الموارد الاعلامية والسرية التى تضرب حولها والعقبات المادية والاجتماعية التى تحول دون وصول المعلومات الى الجمهور ، وضعف القدرة على الانتباه والتركيز ، والفقر فى اللغة ، وضغط المكونات النفسية اللاشعورية ، وتأثير المتاعب ، والتكرار والعنف والرقابة . وهناك ايضا غموض الحقائق وتعقيدها مما يؤثر فى الوضوح، فينشأ سوء الفهم وصعوبة الادراك . وعلى هذا الاساس لا تتكون فى عقول الناس افكار وانما تنشأ أيخلة واوهام ، وهذه هى التى تسيطر على سلوك الناس. والبيئة الثقافية التى نعيش فيها هى التى تحدد لنا ما ندرکه . فنحن لا نرى ثم نحدد ولكن التحديد يكون سابقاً على الرؤية والادراك . وملاحظتنا للأشياء والاحداث تتمشى دائماً مع الانماط المحددة التى

جماعة بعينها . اما العناصر المتكررة فتتمثل فى الكلام واللغة بمعناها الانسانى Langage ظاهرة عامة تظهر فى هذين المنصرين مجتمعين . واللسان - او لفة جماعة معينة - مجموعة من الرموز يتلقاها الفرد من الجماعة التى يعيش فيها عن طريق السماع . اما الكلام فانه مجموعة من الاصوات التى تمثل نشاط الفرد باعتباره متكلماً . ووحدة الكلام الجملة اما وحدة اللسان فهى النمط . ومن ثم فان اللسان ليس مجرد مجموعة من المفردات ولكنه بصفة اساسية نظام يشمل الرموز والانماط وعلى الباحث ان يحاول بلورة هذا النظام بوجوداته وبعلاقاته المتكاملة .

وقد حاول دى سوسير ايضا توضيح الطبيعة الرمزية للغة ، فالرمز اللغوى دال Signifiant يشير الى مضمون يدل عليه Signifié وهدف الباحث ان يتبين عناصر الدلالة المختلفة مكتشفا قدرتها الرمزية . فاللغة عند دى سوسير هى ذلك النظام المستقر عند الجماعة ككل الذى يمكن تبين عناصره من الظواهر اللغوية المتاحة .

نظرية الانماط الجامدة :

ومن جهة اخرى ، فقد كان والتر ليمان من الرواد الاوائل فى دراسة الاتصال الجماهيرى ، الذين اعدوا من الدراسات اللغوية ، فذهب الى ان الانسان مخلوق محدود الادراك ، فهو لا يستطيع ان يفهم العالم او يتصوره بمجرد ملاحظته ، وانما يتأتى فهم الانسان للعالم الذى يعيش فيه على مراحل من النضج والتطور والحصول على المعلومات .

فالعالم الموضوعى الذى تتعامل معه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً يقع خارج نطاق احساسنا ، وخارج حدود بصرنا وعقلنا .

ويرى ليمان ان المسائل العامة كالسياسة والحكم والتربية والانتخابات والاصلاحات وغيرها ، تتأثر بما يصدره الناس من احكام نابعة من الصور الذهنية التى يكونونها عن انفسهم وعن الآخرين وهذه هى آراؤهم. اما الرأى العام فيتكون من حصيلة هذه الصور المنتشرة فى رؤوس الجماهير ، وهو القوة التى تسمى اجهزة

مرتبطة بالنظام اللغوي قيد الدراسة ، فلكل لغة نظامها الفونولوجي الصوتي .

وقد اوضحت لنا الدراسات الصوتية ان مصطلحات اى علم من العلوم هي رموز لا قيمة لها الا في اطار نظام نظري متكامل وان المصطلحات والمفاهيم لا تتحدد قيمتها الرمزية داخل النظام الا بعلاقات التضاد والتكامل .

اللغة والانماط الصرفية :

ولا يقتصر النظام اللغوي في مكاناته على بعض الوحدات الصوتية ، ذلك ان ثمة انماط صرفية محددة تنظم هذه الوحدات ، ولكل لغة نظامها الصرفي الخاص بها ، على ان البحث الصرفي الاعلامي يهدف الى تحديد الوحدات الصرفية المختلفة ودراسة انواعها وانماطها المختلفة ، وعلاقتها في النظام اللغوي ، من حيث اتصال هذه الانماط الصرفية بالادراك والمعرفة ، ومن حيث اسهام هذه الانماط في اللغة الاعلامية التي ترمى الى النموذجية والتبسيط . لان العقلية الجماهيرية تركز الى الاستعانة بالرموز والانماط والنماذج والتجسيد ، فاللغة الاعلامية لا تتألف من كلماتها الا منتظمة في انماط تتخذها الجملة ، وهنا تظهر دراسات اللغوي الامريكى شوسكى في بناء الجملة والتي تذهب الى ان النظام اللغوي ليس المجموع الحسابي لما سجل من عبارات ، بل هو شئ مجرد له وجوده الفعالي وغير الواعي لدى افراد المجتمع اللغوي وهدف النظام اللغوي هنا ليس مجرد الاستقراء الوصفي بل عليه ان ينطلق من المادة المتاحة ، لوضع فروض حول انماط الحيل الممكنة ، ثم نختبر هذه الفروض في ضوء الواقع اللغوي .

اللغة الاعلامية وعلم الدلالة :

وقد هيا النهوض الدراسي بالاصوات ، واللهجات الشعبية ، وعلم النفس اللغوي الطريق للوصول بالدراسة الدلالية الى اوجها ، فقد بذل الباحثون في علم الدلالة جهودهم للوصول به الى مناهج البحث العلمى . فاهلوا الابحاث الفلسفية التي لا تؤدي الى نتائج متيقنة . وعملوا على استخدام التجارب الفعالة كطريقة التجارب وقياس الغاير على الحاضر والموازنة والاستنباط المبني على اسس سليمة . وقد اثرت هذه

تصبها البيئة الثقافية في نفوس الجماهير ، ولا يلبث الانسان ان يرى كل الاشياء من خلال هذه الانماط التي تصبح بمثابة المرشحات التي تصبغ لون المرئيات والانماط ضرورة هامة للادراك والمعرفة ، ولا يمكن الاستغناء عنها .

وتساعد هذه الانماط على تأكيد احترامنا لذاتنا وتمسكنا بحقوقنا ، وتعصبنا لمركزنا الاجتماعى والادبى ، ونقول دائما هذه الانماط شئ طبيعى .

اللغة ونظريات الاتصال الحديثة :

وقد فتحت دراسات والتر ليمان المجال امام دراسة الاتصال الاعلامي دراسة علمية منظمة ، وخاصة من ناحية تأثيرها في اتجاهات الناس ومعتقداتهم وسلوكهم . فتوفر فريق من العلماء ذوى الاختصاصات المتعددة على هذه الدراسات ، وكان من بينهم متخصصون في علوم الحيوان والاقتصاد والرياضة واللغويات ، والتاريخ والهندسة والتشريح .

وتخضت هذه البحوث جميعا عن كتاب صدر سنة 1957 بعنوان « الاتصال الانساني » يتجه الى دراسة المخ البشرى ، على اعتبار انه مركز الاتصال والمسيطر عليه ، ونتيجة لذلك ظهرت تنسرات للعمليات النفسية كالذكر والانتباه والادراك وغيرها ، كما درست اللغة من ناحية التعبير عن المعلومات ونقلها . وتفرعت دراسات في الموسيقى والفنون ، ودراسات في الكلام ومشكلات النطق ، وبحوث مستفيضة حول الشائعات وعلم الدلالة .

وارتكزت هذه البحوث على تقدم علم اللغة وظهور علم الصوتيات ، الذى وجه الباحثين الى دراسة اللغة كنظام رمزى . وكان للباحث الروسى تروبتسكوى فضل بلورة المنهج « الفونولوجى » وتطبيقه تطبيقات ناجحة ، فقد اتجه البحث الصوتى قبل تروبتسكوى الى دراسة اللغة كظاهرة تشريحية - فيزيائية ، فانصرف جهدهم الى الصوت نفسه دون النظر في طبيعته كجزء من نظام رمزى متكامل . وعند ما بلبور تروبتسكوى نظريته في الوحدة الصوتية فرق بينهما من جانب وصورها الصوتية المختلفة من الجانب الآخر . وعلى ذلك يكون المعنى وتغيره او عدم تغيره فيصلا في التمييز بين الوحدة الصوتية والصورة الصوتية ، وهذا

الدراسة واتجهت في اتجاهات عدة لبحث الدلالة الصلاتية والدلالة الصرفية والدلالة النحوية والدلالة القاموسية. ولعل علم الدلالة هو اقرب الفروع اللغوية اتصالا بمنهج البحث الاعلامى ، حيث يفيد في كيفية ارسال الرسائل الى الجمهور بوسائل الاعلام المختلفة، بحيث تنتقل المعانى كاملة ودقيقة ، كما يفيد هذا العلم في دراسة اللغة الاعلامية كقوة فاعلة تستعمل للتنوير ، ويساعد الاعلاميين كذلك على فهم قدرة اللغة على الخداع والتضليل ، وليأمنوا شرها ، ويجنبوا الناس خطر الزلل والانزلاق .

اللغة والبحث الاعلامى :

قد اثبت علماء الدلالة ان الالفاظ تؤثر على الجهاز العصبى للانسان ، كما ان اختيار الالفاظ هو الذى يساعد على التحكم في اتجاهات الناس وتصرفاتهم ، ولما كان خبراء الاعلام يهدفون الى تعديل الاتجاهات ، وتكوين الآراء لكسب التأييد ، وتعبئة الشعور عن طريق الوعى والتنوير ، مما يؤدي الى تصرفات اجتماعية سليمة ، فان نتائج علم الدلالة من اهم البحوث التى يفيد منها هؤلاء الخبراء .

اللغة والبحث الاعلامى :

وعلى ذلك يمكن القول ان علم اللغة قد حقق بمنهجه في تحليل البنية والدلالة درجة عالية من الدقة ، بحيث اصبح كثيرون من المشتغلين بعلوم الاتصال بالجواهر يطبقون الاسس المنهجية للتحليل اللغوى او تحليل البنية اللغوية في بحث عبطيات الاتصال بالجواهر المختلفة ، فبدأ التمييز بين الدراسة الوصفية للبنية وبين الدراسة التطويرية لها ، وتوسلوا بالتمييز بين العناصر الرمزية الدالة وما تدل عليه في اطار المجتمع. واخذ الباحثون في الاتصال بالجواهر يبحثون في اللغة باعتبارها عنصرا اساسيا في عملية الاتصال الاعلامى .

فاللغة اذن هي العروة الوثقى التى جعلت الاتصال عملية اجتماعية ، وهى التى تحدد الكيان الاجتماعى للاتصال الاعلامى ، او اضطرابه في مواجهة المعايير التى يفرضها المجتمع في المظهر والسلوك وعلى ذلك فان منهج البحث الاعلامى في اللغة ، انما يهدف الى البحث في ماهية اللغة ، من حيث كونها اداة اتصال

يستعملها المشتغلون في الاجهزة الاعلامية ، بحيث ينصب المنهج على البحث بشكل خاص في اللغة الاعلامية بمستواها العلمى الاجتماعى ، باعتبارها كيانا خاصا متميز الملامح والسمات ، مستقلا عن اللغة بمستوييها التدويى الفنى الجمالى ، والعلمى النظرى التجريدى ذلك ان اللغة الاعلامية ، لا تهدف الى مناقشة حاسة الجمال لدى القراء ، بل على العكس من ذلك ، تتضمن اتصالا ناجحا اساسه الوضوح والسهولة .

وقد قال هربرت سبنسر ذات مرة : « ان لدى القارئ او المستمع في اى لحظة من اللحظات طاقة ذهنية محدودة يمكن استغلالها لتعرف وتغير الرموز المعروضة عليه والتى تتطلب جزءا من طاقته الذهنية، اما ترتيب وتنسيق الصور المعروضة عليه فانها تتطلب جزءا اكبر من المقدرة ، والجزء الباقى يمكن تخصيصه للفكرة ذاتها ، اما الطاقة الذهنية الاقل حيوية فهى لفهم هذه الفكرة » .

ويمكننا بالاستعارة تشبيه اللغة بأنها سيارة او حافلة الافكار التى يكون من الطبيعى ان الاحتكاك والقصور الذاتى في كل احوالها يحدان من كفاءتها ، والهدف الاساسى في الموضوع . وهو ليس الهدف الوحيد ان نقل من هذا الاحتكاك والقصور الى اقل درجة ممكنة » .

على ان المنهج الاعلامى في اللغة ، يستخدم طرقا عامة يشترك فيها مع غيره من البحوث اللغوية ويستخدم كذلك طرقا خاصة به تقتضيها طبيعة الظواهر التى يعرض بدراستها - كما سترى - وهذه الطرق جميعا انما هى من ثمرات البحث الحديث . لان اللغة الاعلامية ليست بعنا لنظريات قديمة ، او عرضا لنتائج العلوم التطبيقية على المجال الانسانى ، ولكنها افادت من ذلك جميعا طاقات جديدة ، ولعل برنارد شو من الرواد الذين فطنوا الى وجوب البحث في التراكيب اللغوية الاعلامية ، لكى يساير الهجاء مقتضيات الحياة ، ولكى يصور في الوقت نفسه الموقع اللغوى ، والذى لا تحكيه الحروف الهجائية حكاية تامة ، فالاختلاف بين الجماعات والطبقات على المخارج والاصوات شائع وبديهي ، ولا بد من الوصول الى رموز ، في حروف الطباعة والآلات الكاتبة تصور ذلك الواقع اللغوى ، ولا بد في الوقت نفسه من الانتكاء على الاختزال ، افادة من الوقت الضائع سدى في الاملاء والتدوين والطباعة .

الفصل الثالث

اللغة في ضوء البحث الاعلامي

تحتل اللغة موضعا رئيسيا في عملية الاتصال الاعلامي ، التي تسرى في كيان المجتمع على مستويات مختلفة من حيث استخدام اللغة والرموز ، على اعتبار ان الرسالة الاعلامية من اهم عناصر عملية الاتصال الاعلامي بابعادها النفسية والاجتماعية والثقافية .

وإذا كانت العبارة التقليدية تحدد عملية الاتصال في :
(من ، يقول ماذا ، لمن ، وكيف ، وبأى تأثير)

فان اهم عناصر الاتصال يتمثل في « اللغة » او « الرسالة الاعلامية » ولما كانت « الرسالة » تمثل الوسائل التي يتصل من خلالها فرد بأخر او جهة بأخرى ، فان بحوث الاتصال تعنى بوصف هذه الرسالة بدقة وان تفسر ببصيرة نافذة .

ولقد انفق العلماء جهودا مضمينة ووقتا طويلا ، في بحوث الرسالة الاعلامية من حيث كتابتها وتحريرها ، وفنون صياغتها حتى انه يخيل للجزء ان زاوية الرسالة هي الزاوية الوحيدة التي شغلت الباحثين ذون الزوايا الاخرى . غير ان المواقف الاتصالية اشمل من ذلك واعم ، فهي مواقف سلوكية تقدم فرما مضطردة ومتزايدة للمشاركة في الخبرة ، وتحقيق الاهداف وكسب المعرفة والفهم وافتراس الفروض بشكل عام ، للسيطرة على البيئة من خلال استخدام الرموز (51) .

والمنهج الاعلامي في اللغة انما هو اسلوب علمي يستخدم لوصف عملية الاتصال الاعلامي ، وصفا موضوعيا منظما على اساس كمي للمضمون الظاهر للاتصال اي لمجموعة المعاني التي تظهر من خلال الرموز المستخدمة في عملية الاتصال . فهو اذن منهج لوصف المضمون الظاهر للرموز المستخدمة في عملية الاتصال الاعلامي بطريقة موضوعية تضمن وجود تعريف دقيق لفئات التحليل بحيث يمكن لمحللين مختلفين ان يطبقوها على نفس المضمون ويحصلوا على نفس النتائج .

اما التنظيم الذي يقتضيه المنهج الاعلامي ، فيعنى تحليل الرسالة الاعلامية على ضوء حصر كل الفئات

المناسبة لموضوع التحليل ، كما يعنى ان يهدف التحليل الى التحقق من مشكلة لغوية ، او فرض لغوي يمكن من خلال التحقق منه ان يكون لنتائج تحليل اللغة الاعلامية قدر من الفائدة التطبيقية فيما بعد .

ويعنى الاساس الكمي للمنهج الاعلامي انه من اكثر الخصائص تمييزا للمنهج الاعلامي في اللغة ، مما يميزه عن المناهج اللغوية الاخرى . ولا يتطلب ذلك ضرورة تحديد قيم عددية لفئات التحليل ، اذ يتخذ التقرير احيانا شكل كلمات كمية .

ذلك ان اللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع ، انما تقع في كونها من جهة ضريا من السلوك البيولوجي الخصب بأدى المعاني ، ناشئا تلقائيا من النشئ العضوية الاولى ، وفي كونها في الوقت نفسه - من جهة اخرى - تضطر الفرد الواحد من افراد الناس ان يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين وان ينظر الى الامور ، وان يجرى عليها البحث من زاوية لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء او اطرافا متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لا شك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الوجه والهدف لنشر اللغة . ولكن الذي لا شك فيه ايضا ، انها تهم اول ما تهم شخصا آخر - المستمع « المستقبل » - او اشخاصا آخرين ، يوجه اليهم المتكلم « المرسل » الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المرسل والمستقبل تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بتقدير ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (52) .

وعلى ذلك ، فان لغة الانسان المكتوبة والمنطوقة ، بل وكل وسائل التفاهم بالحركة والاشارة ولغة الفنون كالموسيقى والرقص هي وسائل للتفاهم .

اي وسائل اعلامية :

اللغة ونظرية الاعلام :

ولكن هل من سبيل لقياس حجم ما في اللغة من معلومات وتقويم دقتها على اساس كمي بالارقام ؟

(51) د . ابراهيم امام : « الاعلام والاتصال بالجواهر » - ص : 135 .

(52) مجلة « اللسان العربي » - العدد : 3 - ص : 55 - الرباط - 1375 هـ .

وكيف نفرق بين اصوات او حروف تعطى قدرا كبيرا من المعلومات واخرى تعطى نورا يسيرا ؟

ذلك المنهج الاعلامى فى اللغة هو موضوع نظرية الاعلام . وهى نظرية حديثة ترتكز على اسس رياضية راسخة . وقد وضع اساس هذه النظرية العالم الامريكى « كلود شانون » عام 1949 ثم ما لبث ان تناولها بالدراسة والبحث عديد من العلماء والباحثين فى مختلف ميادين الفكر والبحث العلمى : علماء الحياة واللغة والوراثة والرياضيون والفلاسفة وعلماء النفس . وتقوم هذه النظرية على اساس ان اللغة هى «شفرة» ، اى نسق اصطلاحى من الاشارات متفق عليه بين المرسل والمستقبل بهدف اعلامى .

وحجرا الزاوية الاعلامى الرياضية هو مفهوم عدم التحدد اى الغموض . فان اى مجموعة من الحروف نسطرها او اى مجموعة من الوحدات الصوتية « الفونيمات » نطلقها تحت احتمالات متعددة لتحديدها . فقد تكون ذات معنى ، وهنا يزول عنها عدم التحدد ، وقد تظل بلا معنى فيكتنفها الغموض او عدم التحدد . ومعنى ذلك انه للكشف عما يكون هناك من معنى او لقياس حجم المعلومات فى جملة من العبارات المكتوبة على اساس نظرية الاحتمالات يلزم دراسة اللغة المكتوبة باعتبارها شفرة عناصرها الاولية الحروف الابجدية ، ثم دراسة احتمالات تكرار الحرف الواحد فى اللغة ، والحرفين والثلاث .. الخ ، واحتمال تجاوز حرفين معا والثلاثة حروف الخ . ودراسة الفواصل بين كلمة واخرى . فحروف الابجدية هى الذرات او اللبنة الاولية التى يتألف منها بناء اللغة فى شكل مقاطع وكلمات بينها فواصل . ولكن الملاحظ - كما يقول كوندراتوف - ان معظم الحروف المفردة فى اللغة ليست ذات معنى وكذلك ليس كل تركيب لغوى من الحروف يحمل معنى ، وهذا هو ما يسمى بخاصية الفضل فى اللغة اى الافراد او الزيادة فى الاقتصاد .

فاللغة العادية ليست كلفة العلوم مثلا حيث كل حرف له معنى ، فحرف (ا) فى الكيمياء يعنى الاكسجين بينما لا يعنى شيئا خارج هذا الاطار الاصطلاحى ، فيبدو كأنه فضلة او زيادة لا يبرزها الاقتصاد . وكذلك الحرفين (اب) قد تعنى (اب) ، و (ام) تعنى (ام) ولكن ليس كل حرفين متجاورين لهما معنى بالضرورة على ان هذه الزيادة فى اللغة والتى لا يبررها

الاقتصاد تقتضيها الضرورة ، فهى « حد الامان » . وتفيد كل الدراسات اللغوية الحديثة ان نسبة الفضل فى كل لغات الانسان العادية تتراوح ما بين 70 و 80 % وتزيد هذه النسبة فى لغة الفنون المتخصصة ، وذلك لان حصيلة كل فن من الفنون اقل من جملة حصيلة اللغة ، ولهذا كانت القراءة المتخصصة ايسر من القراءة الشاملة ، او انها افقر منها لغة وتقل هذه النسبة فى لغة الادب ، ذلك لان الادب فيه تلويح وتصوير وثناء وخيال .

ومن ذلك يبين ان احتمالات تكرار كل حرف من حروف اللغة فى الكتابة او الكلام ليست احتمالات متساوية ، كما ان هذه الاحتمالات تختلف من فن لآخر من فنون المعرفة . ومن ثم يلزم دراسة هذه الاحتمالات لكل حرف من حروف الابجدية على حدة ، ثم دراسة احتمالات تجاوز كل حرفين على حدة وكذا كل ثلاثة حروف واربع ... الخ .

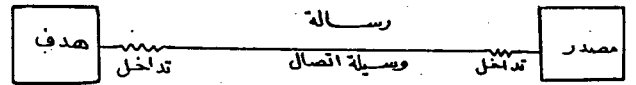
واحتتمالات الفواصل بين الكلمات والجمل ، واحتمالات تجاوز الحروف المتحركة والساكنة وقواعد النحو والبناء اللغوى .

ولكن اللغة ليست فقط حروفا متجاورة وكلمات بينها فواصل ، بل هى اشارات لها ما وراءها ، اى لها مدلول او معنى . فإى بناء لغوى فارغ من المعنى لا قيمة له اذا فقد الوظيفة الاصلية للغة وهى التفاهم او نقل المعلومات اى واقعتها . ويختلف معيار التحقق من اللغة هل هى ذات معنى ام لا باختلاف ميدان استخدامها ، فالتجربة هى معيار الحكم فى العلوم الطبيعية ، والفهم المشترك معيار الحكم فى اللغة العاملة بين الناس كما انه معيار الحكم فى لغة الاعلام .

وتأسيسا على هذا الفهم تعنى نظرية الاعلام بدراسة حجم المعلومات التى يمكن لمخ الانسان ان يستقبلها ، ويتقضى ذلك دراسة معدل الوارد من المعلومات الى المخ فى وحدة زمنية معينة وهو ما يسمى بسعة الجهاز العصبى او طاقته . ويستلزم ذلك دراسة كفاءة العمل لكل من اعضاء الاستقبال الحسى وكماقتها فى الاستجابة واوجه الاختلاف والتمايز بين كل منهما ومن ثم يمكن تحديد كفاءة الجهاز العصبى فى الاستقبال والاختزان للمعلومات ذات المعنى سواء فى مجال الحديث الشفاهى او القراءة او السرعة اللازمة

وتختلف هذه النسب ايضا على اساس الخصائص الفردية للانسان وحالته العضوية والنفسية ودرجة التدريب ،، الخ . (53) .

وترتكز نظرية الاعلام عند « شاتون » على ان عقل المصور هو المنبع ، وان المرسل يستخدم اللغة والاشارة لنقل الرسالة ، فيتلقها المستقبل ، ويديرها بعقله وهو المصب او الهدف . يضاف الى ذلك تفسير صاحب هذه النظرية لعنصر التداخل والتشويش ، الذي يعوق عملية الاتصال الاعلامي وقد ينشأ التداخل من المرسل او الرسالة او الوسيلة او المستقبل ، فتتعد عملية الاتصال شيئا من المعلومات المتدفقة من المصدر الى الهدف . ويمكن ايضا ذلك بقولنا ان حروف الطباعة الصغيرة الى حد كبير ، تعتبر تداخلا في الاتصال الصحفي كما ان سوء الاضاءة ، وعدم ارتياح القارئ لاسباب صحية او نفسية ، قد تعوق الفهم ايضا وتعتبر تداخلا . ومن الامثلة على ذلك ايضا ، دق جرس الهاتف اثناء الاستماع الاذاعي او حدوث ضجة مفاجئة ، وكلها تمثل فكرة التشويش او التداخل . ولا بد للاعلامي الناجح ان يدخل هذه الامور جميعا في اعتباره . وقد يكون العيب في ارسال التلفاز او الاذاعة نفسه ، او عيب او مرض يعترى المستقبل . ويمكن تصوير التداخل هكذا (54) :



وقد يعالج التداخل بالاعادة او التكرار حتى تتاح الفرصة للمستقبل لتلقى الاشارة ، غير ان المرسل يراعى تجنب التكرار الممل البطن كما يتجنب الاسراع الشديد . ويعتبر مفهوم رجوع الصدى من الناهيم المأخوذة عن الدوائر الكهربائية ايضا . وتعتبر هذه الارجاع اختباراً لسلامة الدائرة ، او ما يصيبها من اعطال . وينفس الطريقة نجد ان رجوع الصدى في

الاتصال الانساني ، يعطى للمرسل فكرة عن استجابة المستقبل للرسالة او رفضه لها (55) .

ويقدم « ويلبور شرام » نموذجا لعملية الاتصال يصور فيه :

اولا : المصدر او صاحب الفكرة ، وقد تكون هذه الفكرة واضحة بصورة كافية بحيث تعتبر سالحة للتوصيل الى المستقبل ، وقد لا تكون . والعنصر الثاني هو التعبير عن الفكرة وصياغتها في رموز لتكوين الرسالة او الاشارة . والعنصر الثالث هو المستقبل الذي يفك رموز الرسالة ، كما تلتقها الجماهير المختلفة بصورة غير مباشرة . والعنصر الرابع هو الاستجابة ورجع الصدى الذي قد يصل ، وقد لا يصل الى انتباه مرسل الرسالة الاصلية . واذا وصلت هذه الارجاع ، وفسرها المرسل تنسيرا صحيحا ، فان الدورة الاتصالية تكتمل ، وتتكرر هذه الدورة - بطبيعة الحال - الى ما لا نهاية ، وهذه التفاعلات الاجتماعية ، هي تسيح البناء الاجتماعي والثقافي نفسه .

ومن جهة اخرى يذهب علم « السيموطيقا » او نظرية الاشارات والرموز الى وجود تمايز بين الاشارات والعلامات ، من حيث ان الاشارات اصطلاحية اي متواضع عليها بين الناس وكونها تستلزم وجود عنصر المرسل والمستقبل مع توفر عامل الوعي والادراك المقصود ، لان وظيفة الاشارة اعلامية اي نقل المعلومات . اما العلامة فلا تستلزم وجود العنصرين لانها لا تتضمن عملية اعلام مقصودة .

ويميز علم الاشارات والرموز بين ثلاثة انماط من العلاقات ، علامات دالة « علامات التطابق او العلامات المصورة » وتتسم بأن المعنى او المحتوى والصورة الخارجية او التعبير متطابقان ومتماثلان ، والنمط الثالث علامات الاتصال او الاشارات الاصطلاحية وتسمى اشارات بالمعنى المحدد والدقيق لهذه الكلمة . واكثر العلامات المتواضع عليها بين البشر هي من هذا النمط على ان الاشارة تكون غير ذات معنى ما لم تكن ضمن نسق من الاشارات يحدد معناها وتكون صوابا في اطار هذا النسق دون غيره . والاشارات او اللغة

(53) المرجع السابق .
 (54) الدكتور ابراهيم امام : « الاعلام والاتصال بالجماهير » - ص : 143 .
 (55) ايضا المرجع السابق - ص : 143 .

في عمومها سواء كانت الفاظا ام حركات لها شكل ومعنى او وعاء ومحتوى . وقد يتفق الشكل ويختلف المعنى ، وجوهر اللغة في معناها اساسا (56) .

ويقرر علماء « السيميوطيقا » (57) ان لغة الاستعمال المنطوقة هي نسق من الاشارات نشأ في المجتمع وللمجتمع الا ان لها خاصية تميزها عن سواها من وسائل التفاهم . ف لغة الكلام الشائعة ليست كما تبدو في ظاهرها لغة بسيطة . انها تبدو لنا كذلك فقط لانتنا نتمثلها منذ نعومة اظفارنا وتحكمنا في قوانينها وقواعدها دون ان نتبين عن وعى وادراك طبيعية العملية ، وان كان هذا هو ما يتوفر لنا بعد ذلك في سنى الدراسة بالمدسة حين نتعلم القراءة والكتابة.

ان لغة الانسان نسق اشارى بالغ التعقيد ، قادر على نقل الفكرة الخالية المجردة والصور العقلية مثل مفهوم الوعى المطلق وهو ما لا يتأتى من اى نسق اشارى لغير الانسان . ومن ثم فهى لغة اكثر ثراء وغنى واكثر اقتصادا . ويرى علماء السيميوطيقا انها اصبحت كذلك لانها لغة ارتقائية .

ونخلص من ذلك ، الى ان اللغة تتميز على غيرها من الرموز والنظم الاشارية بانها في متناول الجميع ، وهذا يميزها عن العلم والفن او الادب اللذين يتطلبان تدريبا خاصا ، فالعالم رموزه وصيغه وارقامه في علوم الطبيعة والرياضة والكيمياء والفلك . المنطق وغيرها ، ولا يمكن فهم الرياضة الا بعد اتقان هذه الرموز بتدريب خاص .

اما اللغة العملية ، اللغة اليومية ، اللغة الاجتماعية ، لغة الفن الاعلامى فتمتاز بالشمول كما انها لغة طبيعية تتعلمها منذ الطفولة ، في حين ان لغة العلم ولغة الفن من اللغات المصطنعة التى لا يمكن اكتسابها الا بعد سنوات من المران والتدريب (58) .

اللغة الاعلامية :

وهكذا توجد ثلاثة مستويات للتعبير اللغوى : اولها

المستوى التذوقى الفنى والجمالى ويستعمل في الادب والفن ، والثانى هو المستوى العلمى النظرى التجريدى ، ويستعمل في العلوم ، والثالث هو المستوى العلمى الاجتماعى العادى وهو الذى يستخدم الصحافة والاعلام بوجه عام . وهذه المستويات الثلاثة كائنة في كل مجتمع انسانى ، والفرق بين المجتمع المتكامل السليم والمجتمع المنحل المريض هو تقارب المستويات اللغوية في الاول ، وتباعدها في الآخر . فتقارب مستويات التعبير اللغوى دليل على تجانس المجتمع ، وتوازن طبقاته ، وحيوية ثقافته ، ومن ثم الى تكامله وسلامته العقلية ، فمن الثابت ان العصور التى يسود فيها نوع من التآليف بين المستويات العلمية والادبية والعلمية ، وهى غالبا ازهى العصور وارقاها . اما اذا كان كل مستوى لغوى بعيدا كل البعد عن الآخر فهو دليل على الانقسام العقلى في المجتمع ، وهذا يؤدى الى التدهور والاحتطاط والشيوخة والانحلال .

فاللغة كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو والقدرة على الانتقال . والاكثر من هذا كله فانها هى ذلك الجزء من الثقافة او الحضارة الذى يساعد اكثر من غيره على التعلم وزيادة الخبرة والمشاركة في خبرات الآخرين ، سواء الخبرات الماضية او الحالية . اى انها العامل الاساسى في عملية التراكم التى هى اهم عنصر في الحضارة الانسانية (59) .

وتعتمد اللغة في صحتها وقوتها على المستوى العام للغة القائم على التآلف بين المستويات العلمية والادبية والعملية لان الحديث اليومى حين يحسنه افراد المجتمع ينشط اللغة ويعيد لها الشباب . فليس الكلام الانسانى من خلق العلماء او اللغويين ، بل هو على حد تعبير الدكتور ابراهيم انيس (60) من خلق العامة من الناس ممن ربما لم تتح لهم فرصة التعلم في مدرسة ، ومن لا يكادون يحسنون كتابة او قراءة .

حقا ان العلماء والادباء قد يعملون على تنمية اللغة وجعلها غنية حتى تزهر ذلك الجمال الرائع في النصوص

(56،57) المرجع السابق .

(58) د . ابراهيم امام : « دراسات في الفن الصحفى » - ص : 40 - القاهرة 1972 م .
Imam, I. "The Language of Journalism" (1969)

(59) د . احمد ابو زيد : مجلة « علم الفكر » - العدد الاول بالجلد الثانى - 1971 م .

(60) « اللغة بين القومية والعالمية » - ص : 33 .

الادبية ، ولكننا نلاحظ ان اندر النويرات واروعها هي تلك التي تظهر طبيعية ودون رعاية او تعهد .

على ان جذور اللغة لا تعمق الا في التربة العامة التي منها تستمد اللغة عصيرها وغذاءها ، هذا اذا قدر للغة الا تموت وتندثر كما اندثرت تلك اللغات القديمة التي انقطعت صلتها بكلام الناس وخطابهم . يجب لهذا الا تكون هناك فجوة عميقة بين الفاظ الادب والحديث اليومي . فقد تتطور تلك الفجوة الى عزل لغة الدب ، وتصبح اثبه باللغة المصنوعة التي تتقرر صيغها واثكالها بوساطة سلطة عليا كما هو الشأن في الجامع اللغوية بأوروبا ، فقد يصدر المجتمع اللغوي قواعد محددة لتنظيم الاستعمال الادبي ، وقد يفرض النصوص التي يجب ان تعلم في المدارس ، ولكنه لن يستطيع السيطرة على ذلك الحديث الرائج في الاسواق ، وعلى الخطاب العادي في البيوت وبين افراد الاسرة (61) .

وقد حدث هذا لاوروبا في العصور الوسطى عند ما كانت اللغة اللاتينية مستاثرة بالدراسات الادبية ، وبينما كانت اللغات الاجتماعية محتقرة ومنبوذة ، لا تستعملها الا الطبقات العاملة الفقيرة فعاشت في عصور مظلمة ، وباتت تتردى في الجهل والتعصب والتفانير والتناذب . وفي الوقت نفسه ، سادت في العالم الاسلامي آداب رفيعة ، وكانت اللغة العربية شائعة بين الحكام والمحكومين ، مستعملة في الآداب والعلوم وفي الحياة العملية . ولم تكن الفروق بين هذه المستويات شاسعة مغزعة ، كما كانت في اوربا بين اللاتينية والانجليزية او الالمانية مثلا ..

وقد كانت اللغة العربية في اتعس ايامها واحلك عصورها — في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر — تعاني من الانقسام العقلي في المجتمع ، حيث سادت لغة ادبية منمقة متكلفة كتقليد سخيف للطريقة الفاضلية في الكتابة ، عقيمة مصطنعة لم يالفها الشعب ، اما اساليب العرب الفصيحة والكلام البليغ فقد كانوا بعيدين عنه كل البعد وكل ما تصبو اليه النفوس وترتفع اليه المطامح ان يقلد الكاتب اسلوب

الحريرى في مقاماته كما الفت كتب تقدم للناس الكلام المصنوع والرسائل المعدة والعبارات المؤلفة المترادفة ، وليس على من يريد ان يكتب في موضوع الا ان يأخذ بنصبيها .

ومن جهة اخرى اختفت الفروق اللغوية الدقيقة واصبحت الالفاظ المتقاربة مترادفة بحيث لم يعد الترادف في ذلك العصر مزية من مزايا العربية واصبح مرضا من امراضها الوافدة المنتشرة ، وغلب على الناس استعمال الالفاظ في معانيها العامة فضاعت من اللغة بل من التفكير مزية الدقة التي عرفت بها العربية في عصورها السالفة وادى ذلك الى تداخل معاني الالفاظ حين فقدت الدقة واتصفت بالعموم وفقد الفكر العربى الوضوح حين فقدته اللغة نفسها واتسم بالغموض وانفصلت الالفاظ عن معانيها واصبحت عالما مستقلا يعيش الناس في جوه بدلا من ان يعيشوا في الحياة ومعانيها (62) .

وصفوة القول ان الخضوع السياسى والنصوصية الفقهية والصوفية السلبية والصنعة المتكلفة في الادب كان لها جميعا اثرها في اللغة وانعكاس اشعتها عليها فكان للغة في تلك العصور صفات هي الوجه اللغوى لهذه الصفات الاجتماعية الاخرى وتلك هي اعراض رسمية مصطنعة متراكمة ، يصبح المجتمع المريض والحضارة المنحلة . وقد حدث ذلك في العصور الوسطى في اوربا كما حدث في انجلترا في مستهل الفتح النورماندى وحدث ايضا في مصر بعد الفتح التركي حتى القرن التاسع عشر .

وليس من قبيل المصادفة ان يكون ظهور اول صحفى مصرى وهو رفاة الطهطاوى في عصر محمد على مهتما بنهضة علمية ، والتحام بين الثقافة الشرقية والثقافة العربية واهتمام بالترجمة (63) . فقد كانت اللغة الموروثة التي كانت تؤدي اغراض عصور الانحطاط في آفاق ضيقة حاملة صفات التفكير السائد في تلك العصور من جحود وضيق في الافق ، وحملت الحياة الحديثة في اوربا الى العرب آلات جديدة وافكارا جديدة ومشاعر جديدة ، حملت كل ما حملته حضارتنا من ضروب

(61) المرجع السابق — ص : 23 .

(62) محمد المبارك « خصائص العربية » — ص : 6 .

(63) د . ابراهيم امام : « دراسات في الفن السحنى » — ش : 44 .

النشاط الانساني في الاقتصاد والسياسة والحياة الاجتماعية من الوان وصور جديدة ، فقامت المشكلة من عجز اللغة العربية كما خلفتها عصور الانحطاط عن القيام بعبء التعبير عن معاني هذه الحياة الجديدة المادية والمعنوية .

لقد كانت الملاحة بين الامرين عميرة صعبة وكان ينادى بجمهرة المتكلمين باللغة العربية الى حمل هذا العبء والاضطلاع به فكان على جمال الدين الافغانى ويعقوب صنوع والشايخ محمد عبده ومصطفى كامل واحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل من رواد الصحافة الذين جمعوا بين الثقافة العربية المصرية والثقافة الاوربية ان يخلقوا بجهودهم الرائعة لغة الفن الصحفى العربى التى تقترب من لغة الادب ، وتمتاز بالسلاسة والواقعية والتبسيط .

ولقد توجت هذه الجهود بظهور الصحافة الاخبارية الحديثة ، وبالتنوع فى وسائل الاتناع الصحفى بالصورة الفوتوغرافية والصورة الكاريكاتورية ، والعناية بالاخبار النائية . وقد تطلب ذلك استخدام لغة صحيفة تتلام مع شعبية الصحافة ، تتوخى السهولة والتبسيط، دون ان تهبط الى العمامة فى اللفظ ، او السوقية فى الفكر (64) .

وهكذا تتقارب المستويات اللغوية العلمية والجمالية والعملية ، لاننا كلما نزلنا فى سلم التطور الحضارى للمجتمعات ، وجدنا فروقا شاسعة بين المستويين الادبى والعلمى للغة .

على ان لغة الفن الصحفى والاعلامى ، تقوم على الوظيفة الهادفة والوضوح والاشراق ، وتكاد تكون فنا تطبيقيا قائما بذاته . فالفن الصحفى والاعلامى تعبير اجتماعى شامل ، ولغته ظاهرة مركبة خاضعة لكل مظاهر النشاط الثقافى من علم وفن وموسيقى وفن تشكيلى ، الخ .. هذا الى جانب السياسة والتجارة والاقتصاد والوضوعات العامة . ومن ذلك يبين ان الفن الصحفى والاعلامى بوجه عام فن تطبيعى يهدف الى الاتصال بالناس ونقل المعانى والامكار اليهم ، فهو اداة وظيفية وليس فنا جماليا لذاته . ذلك ان للفن الاعلامى وظائف محدودة هى : الاعلام

والتغيير والتوجيه والتسويق والامتاع والتنشئة الاجتماعية . ومع ذلك فلغة الفن الصحفى تختلف عن كل هذه جميعا لانها تتضمنها كلها ولا تقتصر على اى منها ، لان القراء او جمهور المستقبلين ليسوا قطاعا واحدا من الناس ولكنهم فى الغالب كل الناس ، ولان الصحفى يكتب لكل الناس فى كل الاوقات - وليس لجزء من الناس فى كل الاوقات او لكل الناس بعضا من الوقت - فانه يجب عليه ان يجاهد لتحقيق هدف عام وهو جعل رسالته مفهومة لدى الجميع (65) .

وليست على هذا الاساس ، البيئة التى يحيا فيها الانسان ، يعمل ويبحث ماديا فقط ، بل ثقافيا كذلك . فاعمال الانسان وكيفية ادائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوى لجسده فقط ، بل البيئة والانسان يتأثران كذلك بمؤثرات الثقافة فى التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والاهداف والمعتقدات التى تحملها الالفاظ اللغوية فى طيها وتوحى بها .

والمشكلات التى تبعث على التعمى والبحث حول الرسالة الاعلامية انها تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولا تقتصر الاعضاء التى تخص بهذه العلاقات ، على العين والاذن واللسان ، بل من ادواتها كذلك تلك المعانى المتطورة على مر الحياة ، مضافا اليها وسائل التكوين الثقافى .

ذلك ان عملية الاتصال الاعلامى ليست موقفا ساكنا او جامدا ، وانما هو عملية دينامية متحركة ، بحيث تحتل - اللغة - فى مركب العناصر التى يتألف منها المحيط الثقافى للعملية الاتصالية ، مكانا ذا دلالة خاصة وهى تؤدى وظيفة ذات خاصة ايضا فهى فى حد ذاتها نظام اعلامى ، وهى : الاداة الرئيسية التى تنتقل بها سائر تلك النظم الاخرى والعادات المكتسبة ، كما تتغلغل الالفاظ خلال الصور ومضوناتها فى آن واحد ، وتتميز بتكوين خاص بها له قابلية التجرد باعتبار اللغة صورة من الصور .

وذلك هو المعنى الواسع للغة ، فاللغة بهذا المعنى، هى الوسيلة التى تتقبصها الثقافة فتبقى وعن طريقها تنتقل ، وهى ذلك التكوين الذى يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها فى متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهة اخرى ، فان الافكار او المعانى لا وجود

لها الا في رموز يستحيل فهمها دون الرجوع اليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز ، نوعا من البقاء الضروري لوجود الاشياء الرموز اليها ، بمد ان كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي عنها (66) .

ومن هذا يتبين ان علاقات العالم الداخلى النفسانى والعالم الخارجى ، تتجسم في التعبيرات المختلفة التى توجد بوجودها ، وتنعدم بانعدامها ، انها شرط وعلية لها ، وبما ان الموضوع والذات ، اى المفعول والفاعل ، يلتقيان في الشعور الفردى ليتحققا ، كان لزاما على الدراسات النفسانية ان تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير واصنافه .

فاللغة من تقنى (لان لها نماذج وقواعد متفقا عليها) ولكن حقيقتها تندمج في حقيقة تاريخية ، التاريخ الفكرى والنفسانى والصناعى والجغرافى للامة او للامم المتكلمة بهذه اللغة ، ونقصد هنا بالتاريخ الماضى طبيعا ، ولكنه حق يسترسل من الحاضر مع التأكيد بان الحاضر لا ينحصر في الحال ، بل هو ما يعبر عنه النحويون « بالماضى » اى الحال والمستقبل ، لان ما يقوم به الانسان في الحاضر انما هو انجاز لما يريد ان يكون عليه ما بعد الحاضر ، فالمستقبل ليس للبعيد كما ان الحاضر ليس منحصرا فيها قد حضر ، فحاضر ليس وصفا لحالة ، بل اسم فاعل ، اى انه الزمن الذى يقع فيه فعل فعليا (67) .

فالحاضر يختلف عن الماضى ، لان الماضى قد انتهى كحركة مباشرة ، ولما يبقى الا في اشارة او في ذاكرة ، ويخالف ايضا المستقبل لان المستقبل يصوب اتجاهه نحو الامام ويتقصر الآمال .

فالتكلم يغير اللغة ولكنه يخضع لاسسها ومصطلحاتها كى يفهم ، فالكلام اداة للتفاهم ، لا غاية في ذاته . ان المرسل يرمى من وراء الكلام ان يفهم المستقبل انه يريد تواملا .

والانسان هو الحيوان الذى يتكلم ، اى يصنع العلم بالالفاظ ، فتصبح كل لفظة اما مفتاحا لفهم او اداة

مواصلة واتجاه ، واما تحديد لسلوك ، فردى او جماعى ، فالكلمات كالأوراق النقدية والأسلحة او الخاتم السحرى في يد الإنسان ، يكتبه ان ينطق ليحدث شيئا في شعوره ، ورد فعل شعور الآخرين ، ومن هذا التجاوب الشعورى ، ينتج صدى يحرك الطبيعة الخارجية ، فالكلام خلاق ، ان الكلمة الواحدة تحدث احيانا فسادا ، وحيثا اصلاحا . واذا لم يتسبب عنه شئ محسوس عند المتكلم ربما حصل ذلك عند المستمعين ، او عند متكلم آخر ، مرة اخرى ، فالكلمة كالدرهم الذى يحتفظ بقيمته التوالية سواء انتقل الى بائع او الى مشتر ، او لم ينتقل : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة » (68) .

فالبحث في الكلمات من حيث تركيبها المادى ، ومدلولاتها المحسوسة ، وآثارها النفسانية ، يلتقى في ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الاعلام او الاتصال بالجمهور ، وحول المعرفة .

ومن هنا كان التأمل في اللغة فلسفة وعلم ، وبما ان اللغة حركات وعلامات واشارات ورموز اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم اداة للتعبير ، واتخذها الاعلام « رسالة » اتصالية واعلامية ، هكذا نرى اللغة في نفس الوقت ، مادة للبحث واداة له ، اذ ان العلاقة بين الفكر واللغة ليست علاقة خارجية ، اى ليست علاقة تجاور في المكان او تصاحب في الزمان ، بل هى علاقة داخلية ، بمعنى ان الفكر ليس قبل الكلام ولا هو « خارج » الكلام انما هو في الكلام . وكذلك ليست اللغة خارج الاتصال الاعلامى ، وانما هى داخله ، تصوغه وتحدده بقدر ما تقيمه وتشكله .

فاللغة ليست شيئا خاصا بفرد ، بل ملكا مشتركا ، بين المرء وشعوره ، بين الشعور كحالات واحساسات ، وبين ابرازها « كحداث » بين المعنويات والماديات ، بين الانسان والعالم ، ومن هذا كان اشتراك لفظ العقل واللغة ، او « النطق » و « القول » في اليونانية كما اشار الفارابى . والفلاسفة الرواقيون كانوا يرون — كبعض الفلاسفة المعاصرين — ان الفكر واللغة متطابقان ، وان اللغة ليست مقصورة على الاصوات

(66) مجلة « اللسان العربى » — العدد : 3 — ص : 54 — المغرب — الرباط : 1385 هـ .

(67) مجلة « اللسان العربى » — العدد : 6 — ص : 15 — الرباط 1388 هـ .

(68) د . عثمان امين : « الفلسفة الرواقية » — ط 2 القاهرة 1959 — ص : 119 — 120 .

المتعاقبة التي تحدثها القوة الصوتية بواسطة الحلقوم، والتي يستطيع فهم الانسان ان ينطق بها ، كما تستطيع الكتابة ان تمثلها ، فان مثل هذه الاصوات قد لا يكون لها معنى ما ، ومن ماهية اللغة ان تعبر عن معنى ، بل ان اللغة توجد ولو لم يكن هناك كلام ملفوظ : فهناك « كلام داخلي » نفساني يكفى لاستعمال الفكر، وليس « الكلام الخارجى » الملفوظ سوى مظهر من مظاهره .

اللغة هي « الواسطة » العظمى والصغرى في الغياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون

اللغة تعبير « الانا » ونداء للآخرين ، اى دعوة ودعاء ، فالمرء يعطى كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام امام نفسه وامام المجتمع ويعيد سلوكه ويفرض عليه مسؤولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعنى ان انسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، الى مستوى العناصر « الانطولوجية » ، ربما استطعنا ان نقول : الانسان جسم وروح ولغة (69).

ان اللغة — داخل هذا الاطار — تعتبر ظاهرة اجتماعية وضرورة من ضرورات كل مجتمع ، لانها اهم وسيلة يلجأ اليها ليلم التفاهم بين الافراد فيما يتصل بحياتهم اليومية والاجتماعية والادبية والفنية .

وهذا يعنى افتراض وجود علاقة قوية بين اللغة والحضارة او الثقافة .. ولقد درج الكتاب على الكلام عن « لغة الحضارة » وكيف ان حضارة معينة بالذات تجد لها تعبيراً واضحاً وصادقاً من الفاظ ومصطلحات اللغة السائدة في المجتمع الذى توجد فيه . مفردات اللغة والاساليب والتصورات وبناء الجملة والتراكيب اللغوية والتشبيهات والاستعارات وما الى ذلك في المجتمع الصناعى الحديث الذى يتميز بتعدد نظمه الاجتماعية والاقتصادية وبشعور اعضائه بفرديتهم الذاتية ، تختلف اختلافاً جذرياً عن مفردات اللغة وبنائها واساليبها في المجتمع البدوى القبلى الذى يعيش

على الرعى والترحال والذى يرتبط الفرد فيه ارتباطاً وثيقاً بالجماعة القبلية التى ينتمى اليها بحيث تكاد شخصيته تفنى وتذوب تماماً في تلك الجماعة . وهذه مسألة كثر الكلام فيها — على حد تعبير الدكتور احمد ابو زيد (70) — ولكن حديثنا عن الاعلام واللغة يرتبط بما يمكن ان يسمى « حضارة اللغة » هي فكرة مستعارة من عبارة عارضة وردت في محاضرة للفيلسوف الرياضى الفرد نورث وايتهيد ونشرها في كتاب بعنوان « انماط الفكر » (71) ، وتعنى بأنه ثمة حضارة معينة هسي حضارتنا الانسانية يرتبط وجودها ارتباطاً قوياً باللغة بحيث يمكن القول انه لولا وجود اللغة لما قامت هذه الحضارة او لظهرت حضارة اخرى من نوع مختلف عن حضارتنا المعروفة . فالجنس البشرى يمتاز على بقية الكائنات العضوية الحية — بما فيها القرود العليا التى تعتبر اقرب الكائنات العضوية اليها — بالفكر واللغة. وعلى الرغم من ان القرود العليا بالذات تعيش في تجمعات يتميز بعضها بكبر الحجم ، وعلى الرغم من قدرتها على تعلم بعض الحركات ومحاكاة بعضها فانها تفتقر الى اللغة والى الحضارة بالمعنى الذى نفهمه نحن من هاتين الكلمتين .

ومن هنا تختلف الثروة اللفظية من لغة الى اخرى، بل في اللغة الواحدة تختلف هذه الثروة اللفظية من عصر الى آخر بالنسبة لحياة اللغة نفسها . ذلك انه بقدر ما تزيد حاجيات المجتمع وتثرى معانيه يزيد عدد هذه المجموعات الصوتية حتى تكون متجاوبة تماماً مع هذه المعانى وتلك الحاجيات .

وعلى ذلك تصبح اللغة — التى قال عنها ابن جنى في « الخصائص » ، والجرجاني في « التعريفات » انها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم — هي اداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوى الذاتى يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهاته ، كما تصبح اللغة بالنسبة للاعلام : « الرسالة » التى يتم من خلالها نقل الانكار والآراء والمعلومات من المرسل الى المستقبل .

(69) مجلة « دعوة الحق » — العدد 5 — السنة السادسة — 1382 هـ المغرب .

(70) مجلة « عالم الفكر » — العدد الاول — المجلد الثانى — 1971 م الكويت — ص : 13 .

(71) المرجع السابق ايضا .

Whitehead, A.N. "Modes of Thought"

ولا يتأتى هذا التعاون الفكرى ، الا بالتفاهم وتبادل الافكار بين افراد المجتمع ، والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم هى اللغة الاعلامية بمستواها العملى الاجتماعى .

فاللغة الاعلامية اهم مظهر للمحافظة على كيان المجتمع ، فوحدة الغايات والمبادئ تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد فى صورة لفظ واحد مشترك ، يسدل على هذا الشئ او الفعل (74) ، وبذلك تلعب اللغة الاعلامية دورها كرموز مشتركة متفق عليها من كائنة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

تطبيقات المنهج الاعلامى فى اللغة :

وتأسيسا على هذا الفهم ، فان المنهج الاعلامى فى بحث اللغة ، يسهم فى الكشف عن اساليب الدعاية عن طريق تحليلها الى فئات مثل التحليل على اساس الموضوع او الصياغات المختلفة للمضمون او على اساس الدعوى او مقصد الاتصال واثره . وقد ثبت ان تحليل الاتصال على اساس فئات المضمون افضل من تحليله على اساس ما يفترض من مقاصد وآثار .

وقد استخدم هذا الاسلوب فى تحليل الدعاية بالحرب العالمية الثانية وتبين منه وجود اربعة اهداف رئيسية لدعاية الحرب لدى الحلفاء هى : اثاره الكراهية لدى العدو ، والابقاء على صداقة الحلفاء والابقاء على صداقة المحايدىن وضمان تعاونهم ان امكن ، والقضاء على الروح المعنوية للعدو .

واستخدمت فئات اخرى فى تحليل الدعاية وهى ما يطلق عليه اسم « خدع الصنعة » وهى الحيل الخاصة المختفية التى لا يكون الناس عادة على وعى بها . ومن ذلك ان معهد تحليل الدعاية الامريكى قد اكتشف فى سنة 1937 ان هناك سبع حيل رئيسية يستخدمها خبراء الدعاية ، فى تكوين رموزهم اللغوية للتأثير فى الناس ، وكسبهم الى صفهم . اما الحيلة الاولى فهى استعمال الفاظ التعميم البراقة لتهوين

فهنالك من المجتمعات الانسانية من لا يزال يعيش فى عالم المادة وفى دنيا الامور الحسية ، لذلك لا يحتاج الا الى عدد محدود من الالفاظ اللغوية تسد حاجة دنياه وتتجاوب مع ما يدور فى عالمه ، وهناك من استطاع - لعوامل مختلفة - ان يظفر بدرجة من التطور والتقدم فكريا واجتماعيا وادبيا فنراه يضيف الى عالمه المادى ودنياه الحسية امورا اخرى تتصل بعالم نفسى روحى او معنوى فيضع لذلك الفاظا جديدة من اصوات اخرى - على ضوء تجربته - تشرح مدلول هذه الامور النفسية او الروحية او المعنوية (72)

من ذلك نجد انه لا غرابة حين نسمع عن اللغة انها مرآة للمجتمع الذى يتداولها او حين نسمع عنها ان تطورها رهن بتطور المجتمع ، بحيث تتجه اهداف اللغة فى اتجاهين متضادين :

احدهما الى خارج ذات الانسان يقوم بعملية الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمرحلة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الانسان ينشأ الهدف الثالث. وهو الهدف الاجتماعى والترابط الانسانى والتفاهم البشرى (73) .

وقد لخص العالم « اولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

- 1 - انها تجعل للمعارف والافكار البشرية ، قيا اجتماعية بسبب يقوم استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على افكاره وتجاريه .
- 2 - وانها تحتفظ بالتراث الثقافى والتقاليد الاجتماعية جيلا بعد جيل .
- 3 - وانها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .
- 4 - واذ بها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما وصل المجتمع البشرى البصر الى ما هو عليه الآن ، بدون التعاون الفكرى لتنظيم حياته .

(72) د . حسن عون : « دراسات فى اللغة والنحو العربى » - القاهرة 1969 م - ص : 8 .

(73) مجلة « اللسان العربى » - العدد : 3 - ص : 55 - الرباط - المغرب 1385 هـ .

(74) عبد العزيز عبد المجيد : « اللغة العربية » - ج : 1 - ص : 19 - القاهرة 11 .

زمنية متعاقبة على اثاره استجابات انفعالية بواسطة رموز لا معرفية تختلف باختلاف نوع الجمهور .

اللغة الاعلامية ويسر القراءة :

كما اتجه المنهج الاعلامي الى دراسة الاسلوب الذي يؤثر في قابلية اللغة الاعلامية للقراءة او الفهم ، على اعتبار ان الرسالة الاعلامية هي العماد والاساس ، بحيث تختار الرموز الاعلامية وتقدم بعناية تامة ، فكان على المنهج الاعلامي ان يقيس قابلية الرموز المطبوعة او المذاعة للقراءة او الفهم ، من حيث العوامل التي تميز الرموز التي يسهل او يصعب قراءتها او فهمها ، والاختلاف في الاسلوب ، ومدى سرعة القراءة لدى القارئ ومدى التركيز على الكلمات او مجموعات الكلمات ، ومدى ما يستوعب في ذاكرته من المعاني المؤقتة حتى ينتهي من قراءة الجملة . وكان المنهج الاعلامي يركز في البداية على « الكلمة » في قياس قابلية القراءة ، فقسمت الدراسات الاولى القابلية للقراءة المواد الى نسبة الكلمات « السهلة » الى « الصعبة » الموجودة كما تدل على ذلك قائمة مقننة للكلمات مثل قائمة ثورنرايك . وفي السنوات التالية اضيفت عناصر اخرى لبحثها مثل - طول الجملة - الجملة البسيطة والجملة الناقصة التي لا تحتوي على فعل والجملة ذات الفعل فقط ، ثم تبع ذلك ما لا يقل عن 82 عنصرا من عناصر الصعوبة التي زعم بحثها ، اختير منها اخيرا خمسة على اساس ارتباطها الوثيق باختبارات الفهم العام وهي : الكلمة المختلفة ، والكلمات الصعبة المختلفة ، والنضائير الشخصية والجملة الناقصة التي تتضمن حرفا للجرا ، وطول الجملة . ووضعت في صيغة تعد تعبرا مباشرا عن القابلية للقراءة على اساس السنوات الدراسية اللازمة لقراءة الفقرة بسهولة . وفي نفس الفسحة من الوقت تقريبا تضمنت صيغة اخرى منتشرة مجموعة اخرى من ثلاثة عوامل هي : طول الجملة ، والتفصيلات الشخصية وضمائر الوصل .

ويوجد حد هام لتطبيق تحليلات القابلية للقراءة ، ذلك انه يتحقق من صدقها عن طريق القارئ العام لاختبارات الفهم . وهذا القارئ يمثل جماعات تطبيقية

القارئ ، واخذه على غرة ، بحيث يتأثر ببريق اللفظ الطنان ، فيخدعه ذلك عن التفكير او المطالبة بالادلة والبراهين . فهناك مثلا الفاظ : الصدق ، والشرف ، والحرية ، والتقدم ، التي تنتشر في انحاء الجمل والعبارات ، وهناك ايضا الكلمات الدينية والقومية التي يتوسل بها الدعاة ، مثل : الديمقراطية ، والاسلام ، والمسيحية ، والدين ، والشرف ، والامة ، والوطنية ، والحرية ، والقومية ، والانسانية ، وغيرها.

وقد تستعمل العبارات المجازية للتعبير عن موضوعات يريد الداعية الا يظهرها صراحة . فهناك مثلا « الانسحاب وفقا لخطة موضوعة » ، وهناك « تعبیر حظوظنا » ، وقد استعملت هذه العبارة الاخيرة لتغطية مرارة الانسحاب في حرب فلسطين سنة 1948 ، وتستعمل احيانا عبارة « عاشرته معاشره الأزواج » للإشارة الى جريمة الزنا او هتك العرض . وكانت النازلة تروج لعبارة القوة عن طريق اللذة او المتعة لتغطية جرائم الاباحية والانطلاق بين الشباب.

وتدور هذه الحيل حول اختيار موضوع مناسب وتثبيته في ذهن الجمهور وتبسيطه له واطلاق اسم عليه واستخدام كلمات شاملة عامة وبراقة ونقل المعنى من سياق مقبول لآخر وخط الأمور على الجمهور وتقديم الدعاية في ظل معلومات اخرى يصدقها واستغلال الظروف النفسية للجماهير التي تجعلهم اكثر تصديقا لما يقدم لهم .

ومن ذلك يبين ان الرموز لا تستعمل للابانة والوضوح والتفكير فحسب ، وانما تستعمل كذلك للخداع والاثارة والتعمية وايقاظ الغرائز . فقد تستعمل اللغة للتعبير عن المعارف والاحداث بدقة ووضوح فهي لغة اخبارية ، كما هو الحال في الرياضة والعلوم والاعلام ، وقد تستعمل اللغة ايضا لاثارة العواطف والانفعالات في نفوس الناس كما في الدعاية .

فالرموز اما معرفية تؤدي الى معلومات ، واما لا معرفية تؤدي الى انفعالات او اوهام .

وقد تمت بعض المحاولات لقياس حصرم مختلف انواع الدعاية الموجهة الى جماهير مختلفة من خلال وسائل اعلامية مختلفة في نفس الوقت او في فترات

(75) د . املم : « الاعلام والاتصال بالجماهير » - ص : 82 .

مختلفة ، لذا فهي تنطبق على القارئ العام ذى الاهتمام العام ولا تضع في حسابها اثرا لأهتمامات القارئ الخاصة على قابلية قراءته للمادة . فالتأليبية للقراءة اذن تعتمد على اهتمام القارئ وخبرته .

اللغة الاعلامية والاطار الدلالي :

واذا كانت القابلية للقراءة تتوقف على اهتمام القارئ وخبرته ، فان الرسالة الاعلامية تفقد قيمتها عند ما ينعدم الفهم .

ان لكل جماعة ، بل لكل عدد مجموعة من التصورات والاتجاهات تتحكم في سلوكه وفي نظرته للاشياء . فالانسان يعيش في عالين : عالم خارجي موضوعي ، وعالم باطني ذاتي هو مجموعة تصوراته للعالم الخارجى ، او مجموعة المفاهيم والدلالات .

ولا يستطيع الاعلامى ان ينجح في تحقيق هدفه الا اذا عرف هذه العوالم الباطنية او التطورات الخاصة او الدلالات الحقيقية للاشياء في ذهن المستقبل . ذلك انه لكل فرد عالمه الخاص ، وتصوراتنه الذاتية المشتقة من بيئته وثقافته ، بما فيها وسائل الاتصال المختلفة (75)

والانسان يبيل الى تنظيم الحركات بطبعه ، وخلق المعانى عليها ، وفقا لاطاره الدلالي ، او مجموعة خبراته ومدلولاته السابقة : ولا يمكن للاعلامى ان ينجح في اداء مهمته ما لم يعرف حقيقة الاطارات الدلالية للجماعات والافراد .

ويخلق الاعلامى حين يظن ان ما يقدمه من معلومات او افكار سوف تفهم بالطريقة التى يفهمها هو بها . فهناك عقبات عديدة فى سبيل ذلك منها التمييز والتعصب والخرافات والاهام . كما ان هناك عقبات تنشأ عن عوامل السن واللغة والدين والاتجاهات السياسية والاقتصادية .

وعلى ذلك ، فان عناية المنهج الاعلامى بدراسة الدلالة والاطار الدلالي هى عناية بالعوامل التى تؤثر فى معانى الكلمات وفى قواعد اللغة واساليبها فتؤدى الى اختلافها وتطورها .. وما الى ذلك ، فى اطار الظواهر الاجتماعية والتاريخية والسياسية والجغرافية والثقافية ، الخ ..

نظرية فليس فى التجريد :

وافادة من هذه البحوث ، اصبحت اللغة الاعلامية تفضل ان تكون مفرداتها خالية من ازدواج المعنى والتورية والغموض .

وقد صور لنا كوزر ومن بعده هايكلو عملية تجريد اللغة من عوامل الغموض والتورية ومحاولة التخصيص فتحدثنا عن « سلم التجريد » وهو السلم الذى يوضح مدى اختلاف مستويات التجريد . وعلى سبيل المثال فان السلم يرتفع صعودا على هذا النسق:

1 - ان كلمة « ببسى » وهو اسم البقرة المحددة او البقرة (1) يجعلها تختلف عن البقرة (2) او البقرة (3) الخ ..

ب - كلمة البقرة .

ج - كلمة « ماشية » التى تصنف البقرة « ببسى » مع سائر الحيوانات الاخرى التى تشاركها نفس الخصائص .

د - كلمة « الموجودات » او « الاصول » او « الممتلكات » الزراعية التى تصنف « ببسى » مع غيرها مما يشترك معها فى هذه الخصائص .

هـ - كلمة « الاصول » .

و - كلمة « الثروة » وهى اعلى مستويات التجريد فى هذا السلم .

وقد اكتشف الدكتور رودلف فليس معادلة او صيغة لقياس سسر القراءة او ما اصطلح عليه بكلمة « الانقراطية » كما اكتشف معادلة اخرى لقياس « الجائبية الانسانية او الاهتمام الانسانى » . وقد بنى معادلته الاولى عن الانقراطية على اساسين :

الاول : متوسط طول الجملة .

الثانى : متوسط طول الكلمة محسوبا بالمقاطع .

اما معادلة الاهتمام الانسانى او « الجائبية » فهى مبنية على اساسين هما :

لولا : متوسط النسبة المئوية لعدد الكلمات الشخصية ، وهى جميع الاسماء المعبرة عن الجنسين الطبيعيين ، وجميع الضمائر فيما عدا الضمائر المحايدة ، وكلمة الناس المستخدمة مع افعال الجميع ، وذلك كلمة القوم او الامل .

مع ملاحظة ان حروف الاختصار ، وعلامات الوصل او الشرطة تعد كلمة ، كما تحسب كلمات جبيع الارقام والحروف الواقعة بين مسافات .

الخطوة الثالثة : تحصى المقاطع في المائة كلمة المختارة .

الخطوة الرابعة : تحصى الجمل على اساس وحدات الفكر ، لا علامات الوقف .

الخطوة الخامسة : تحصى عدد الكلمات الشخصية في كل مائة كلمة .

الخطوة السادسة : تحصى الجمل الشخصية بالنسبة لكل مائة جملة .

الخطوة السابعة : استخلص يسر القراءة (ىق) باحصاء عدد المقاطع في مائة كلمة اى طول الجمل (طج) طبقا للمعادلة الآتية :

ىق (يسر القراءة) .

206،835 - 846 طك - 1،015 طج .

الخطوة الثامنة : استخلص درجة الجاذبية الانسانية (ج ا) بادراج النسبة المئوية للكلمات الشخصية (كش) والنسبة المئوية للجمل الشخصية (جش) طبقا للمعادلة الآتية :

ج ا (الجاذبية الانسانية) = 3،645 كش + 0،314 ج ش .

وقاعدة الجاذبية الانسانية سوف تضع النص على المقياس الذى يبدأ من اقصى الملل في ناحية الى اقصى الدراما في الناحية الاخرى مع وجود عنصر التشويق للفاية بينهما .

ثانيا : متوسط النسبة المئوية للجمل الشخصية ، وهى جبل المحادثة المنطوقة التى تقع بين علامات التنصيص او الاقتباس ، وكذلك الجمل المنتهية بعلامات الاستفهام او علامات التعجب ومثلها جبل الرجاء والطلب والامر ، وكذلك الجمل الناقصة على اساس النمو اللغوى ولكن يمكن للقارئ فهمها من سياق الحديث .

ويضيف الدكتور فليس ان عامل الاجتذاب الانسانى او الاهتمام الانسانى يساعد على يسر الفهم ، ومن فوائده العظمى حث القارئ وتشويقه للقراءة .

ويبدأ مقياس فليس من الصفر الى المائة بالنسبة لكل من الامترائية والجاذبية . ويبدأ مقياس الامترائية من السهل الى المتوسط الى الصعب للغاية ، كما يبدأ مقياس الجاذبية من الملل الى المشوق الى الدرامى .

تطبيقات معادلة فليس :

وينسر لنا فليس كيفية تطبيق معادلته على النحو التالى :

الخطوة الاولى : اذا اردت ان تختبر قطعة كبيرة من نص معين ، فيحسن استخدام العينات . ويمكن اخذ ثلاث الى خمس فقرات من المقال ومن 25 الى 30 مقرة من الكتاب . ولا ينبغي انتقاء عينات مثالية او ممتازة . ويمكن اخذ عينات منتظمة بمعنى اختيار الفترة 3 ثم 6 ثم 9 وهكذا بحيث تبدأ العينة من بداية الفقرة .

الخطوة الثانية : تحصى الكلمات في القطعة المختارة كلها ، وفي حالة العينات تحصى الكلمات حتى المائة .

ومبما يلى جدول فليس للجاذبية الانسانية :

النسبة المئوية للجمل الشخصية	النسبة المئوية للكلمات الشخصية	نوع المجلات	صفة الاسلوب	درجة التشويق
صفر	2 فاقل	علمية	ممل	صفر - 10
5	4	تجارية	مشوق نوعا	10 - 20
15	7	مختارات	مشوق	20 - 40
32	11	مجلات متنوعة	مشوق للغاية	40 - 60
58 فاكتر	17	قصصية	درامى	60 - 100

أما مقياس يسر القراءة فيتضح من الجدول التالي :

متوسط طول الكلمات في جمل	المقاطع في كل 100 كلمة	نوع المجالات	صفة الاسلوب	درجة الانقرائية
29 فأكثر	192 فأكثر	علمي	صعبة للغاية	صفر - 30
25	167	اكاديمي	صعب	30 - 50
21	155	رقيق	صعب نوعا	50 - 60
17	147	مختارات	عادي	60 - 70
14	139	قصص	سهل نوعا	70 - 80
11	131	قصص	سهل	80 - 90
8 فأقل	123 فأقل	قصص مصورة	سهل جدا	90 - 100

الثالث : هو تمييز الاسلوب بنماذج الكلام ، اى بحث طابع بعض نماذج الكلام المكتوب بطريقة التحليل الكمي .

والرابع : هو العادات والسمات اللغوية التي تميز شخصا ما ، وبخاصة كتابا من رجال الصحافة ، فحين نقول اسلوب العقاد الصحفي او اسلوب الدكتور هيكل الصحفي مثلا تقفز الى اذهانتنا بعض السمات التي ينفرد بها العقاد او الدكتور هيكل ، لا كل العادات اللغوية التي يتميزان بها .

ومهما يكن من امر هذا التحليل ، فانه يمكن القول بأن الهدف من وراء علم الاسلوبيات هو دراسة الاساليب الاعلامية المختلفة بحيث تشير الى الملامح اللغوية التي تميز الصيغ الشائعة فيها ، والى الصلة بين هذه الصيغ وبين وظائفها اللغوية من ناحية ، وبين المواقف الاجتماعية التي تستخدم فيها من ناحية اخرى ، كما نفسر كلما امكن ذلك ، العلة في استخدام هذه الملامح ونقابله باللامح البديلة في الانماط اللغوية الاخرى . ثم نصنف هذه السمات الى فضائل تبوب اما على اساس مميزات اللغوية من نحوية وصوتية ولغوية او على اساس وظائفها في السياق الاجتماعي (76) او على اساس العلاقة بين الاثنين معا اما موضوع البحث الذي يتناول دراسة الاسلوب الاعلامي فهو اى شريحة من الكلام المداع او اللغة

طابع الاسلوب الاعلامي :

جذبت مشكلات الاسلوب الاعلامي الدارسين ، منذ تأكد للفن الاعلامي والصحفي وجود ، فتناول الدارسون بالتحليل الكمي اسئلة مثل :

— ما هو الفرق بين الاسلوب الاعلامي والاسلوب الادبي ؟

— ما هي الاغراض التي يهدف الاسلوب الاعلامي الى تحقيقها ؟

وتفيد دراسة الاسلوب الاعلامي من علم «الاسلوبيات احد الفروع التطبيقية لعلم اللغة الحديث ، ويعتمد هذا المنهج في دراسة الاسلوب الاعلامي على المناهج اللغوية الحديثة ، بل ان بعض الباحثين في تحليل المضمون يذهب الى تجربة التحليل الكمي للاسلوب ، فاتجه هذا التحليل في اتجاهات اربعة :

الاول : هو اللغة كلها ، وقد اجريت دراسات مختلفة للطابع العام لطريقة الكلام ، كتحليل بناء قواعد لغة معينة ، على اساس تكرار انماط الاستخدام التي تظهر في الكتابة والكلام .

الثاني : هو التمييز بين انماط الاسلوب في الفقرات المختلفة ، وكان هذا مركز اهتمام احدث التطبيقات واشملها للتحليل الكمي للاسلوب الاعلامي وخاصة بالنسبة لمشكلات لغة الصحافة .

(76) انظر مقال « اللغة ونظرية السياق » للدكتور على عزت — الفكر المعاصر — العدد : 76 — القاهرة.

المطبوعة التي يمكن للمحلل اللغوي ان يعزلها من الفيض اللغوي المتدفق ثم يخضعها لمعايير البحث والتحليل ، سواء كانت هذه الشريحة عبارة او جملة او فقرة او نصا متكاملًا .

ويطرح الباحث في الاسلوب الاعلامي عدة فروض :

— هل يمكن استكشاف صلة ما بين الصيغ اللغوية وبين وظائفها في الاسلوب الصحفي او الاعلامي بوجه عام ، وبين الوظائف التي تؤديها هذه الصيغ في السياق الاجتماعي الذي تستخدم فيه ؟

— هل يتعين علينا ان نفرق في الوظيفة اللغوية بين ما يمكن ان نسميه « بالاسلوب المعرفي » اي الذي يؤدي الى معلومات ، وبين ما يمكن ان نسميه « بالاسلوب اللامعرفي » الذي يؤدي الى انفعالات واوهام ، وباعتبار آخر هل نفيد في دراسة الاسلوب الاعلامي من وراء التمييز بين الاسلوب المعرفي الذي يستعمل للتعبير عن المعارف لاحداث بدقة ووضوح ، وبين الاسلوب اللامعرفي الذي يستعمل لاثارة العواطف والانفعالات في نفس القارئ ، وصفوة القول في هذه المشكلة ان دراسة الاسلوب الاعلامي تقتضي التمييز بين هذين النوعين من الاساليب لتقنية الاسلوب الاعلامي من الاستعمال التحذيري للغة في السياسة والدعاية ، لان الاسلوب الاعلامي يستعمل للتعبير العقلي الفكري ، والمناقشة الواضحة الناضجة .

وفي هذا الصدد ، يذهب علم النفس الحديث الى ان استعمال اللغة استعمالا عقليا واعيا ، هو الذي يخرج المدركات من مجال الغموض اللاشعوري ، الى حيز الوضوح الشعوري ، ويتفق وارد وستاوت في انجلترا ، وبرجسون في فرنسا ، وكروتش في ايطاليا ، على ان اللغة هي مجموعة الرموز التي تنقل المعاني من ابهام الاحاسيس الى نور الفكر . وفي رأيهم ان الرموز المصورة لا يمكن ان تقوم مقام اللفاظ اللغوية ، لانها غامضة غير محدودة ، وان الرموز للتعبير عن الانكار هي الكلمات اذا استعملت استعمالا عقليا واعيا .

كما ان الفروق بين الاسلوبين تتعلق بمظاهر وظيفية مختلفة لكل من الاعلام والدعاية ، فاللغة الانفعالية

اللامعرفية التي تخاطب الغرائز وتوتظها لا تزال مستعملة في فنون الدعاية والاعلام . فالغرائز البشرية، والانانية ، والخوف ، والغريزة الجنسية وغيرها ، هي الاهداف التي يسعى المعلن والداعية الى التأثير فيها (77) .

اما الاعلام ، بمفهومه العلمي ، الذي يلتزم بمسؤولياته الخطة ازاء المجتمع والافراد ، فانه بحجم عدد الرموز اللامعرفية ، واثارة الغرائز . وهو يساهم في ترقية المجتمع ، ورفع مستوى الراي العام وتنوير الناس ، يفضل استعمال الاسلوب المعرفي الذي يؤدي الى الوعي والتفاهم .

كما تتضمن الفروض التي يضعها الباحث في الاسلوب الاعلامي امامه اخيرا ، هل من الافضل دراسة الملامح اللغوية في اسلوب كاتب ما لذاتها ، بصفتها سمات تميزه عن اسلوب غيره من الكتاب ؟

او الاخرى ان نتقدم خطوة في اطار علم الاتصال بالجمهير ، ونحاول ان نتبين دلالات هذه السمات اللغوية وآثارها ، سواء من وجهة نظر الكتاب او من ناحية تأثيرها على القارئ فنيا او اجتماعيا او سياسيا ، الخ ..

على اننا امام هذا الافتراض ، نجد مقاييس علم الاتصال بالجمهير تحرص على عدم تعرض معايير دراسة الاسلوب الاعلامي من اكتشافات علم اللغة الحديث سواء في مجال علم المفردات او النحو او الصوتيات او الدلالة .

اللغة الاعلامية ونظرية السياق :

يرى مالنوفسكي انه ينبغي علينا ان نربط ما بين دراستنا للغة ودراستنا لانواع النشاط الاجتماعي والانساني الاخرى ، وان نفسر دلالة كل لفظ او عبارة داخل اطار السياق الحقيقي الذي تنتسب اليه ، واللغة بهذا المفهوم تقترب من المستوى العلمي الاجتماعي والذي نسميه لغة الاعلام ، لانها تعد نمطا من انماط السلوك البشري لا يؤدي مجرد وظيفة ثانوية ، بل يؤدي دورا وظيفيا خاصا به ، ولذا يعتقد مالنوفسكي انه من العسير ترجمة الفاظ لغة ما الى لغة اخرى ،

(77) نشره مالنوفسكي كملحق لكتاب اوجدن ورتشاردز المعروف . "The meaning of meaning"

وكما بعثت المسافة بين ثقافتين متباينتين زادت الصعوبة في العثور على مرادفات غير هاتين الثقافتين. وإذا أردنا تعريفاً الترجمة في شئ من الدقة فإنها إعادة خلق اللغة الأصلية إلى لغة أخرى مختلفة تمام الاختلاف. ومن ناحية أخرى ليست الترجمة استبدال كلمة بكلمة ، بل هي من غير شك ترجمة سياقات بكلمتها .

وضفوه القول ، ان فصل الناحية اللغوية للالفاظ عن السياق الاجتماعي والثقافي كما يذهب مالبينوفسكى هو تبين لكل من علم اللغويات وعلم الاجتماع على حد سواء ، فاللفظ بالنسبة له هو عمل ذو قوة وفاعلية لا تقل عن اى عمل يدوي ، او هو مؤثر يدفع للفعل ، مرتبط بالموقف الذى يحدث فيه ، وذلك ما حدا بمالبينوفسكى ان يقول في مقاله : « مشكلة المعنى في اللغات البدائية » :

« يرتبط الكلام والموقف ارتباطا لا ينقسم ، وسيقا الموقف لا غنى عنه لفهم الالفاظ » .

وتجد نظرية مالبينوفسكى هذه ، صدى في كتابات الفيلسوف ك . فنجنشتين الذى يقول في كتابه « ابحاث فلسفية » :

« تكمن معانى الالفاظ في استخدامها ، وليس في مقدور المرء ان يحرس كيف تستخدم لفظة ما ، بل عليه ان ينظر الى استعمالها ، ويتعلم من ذلك » .

ويمكننا ان نقول ان نظرية مالبينوفسكى في السياق ، من اصلح النظريات لدراسة اللغة الاعلامية ، ومن المفيد ان توظف لصالح المنهج الاعلامي في اللغة ، لدراسة اللغة في اطارها الاجتماعي . وذلك ان هذه النظرية — كما ذهب الى ذلك فريث — اطار مناسب تنظم فيه العناصر التي تضم الاشخاص والادوات والاحداث ، الى جانب عنصر اللغة الذى تقوم بينه وبين هذه العناصر الاخرى علاقات وتفاعلات هامة لا يمكن اغفالها عند دراسة الاحداث اللغوية ، على اعتبار ان اللغة ظاهرة اجتماعية في المحل الاول .

ويقترح فريث على اللغويين ان ينحوا في دراستهم للظواهر اللغوية نحو تقصي العلاقات الداخلية للمواقف الموقف على هذا النحو :

اولا : دراسة السمات المميزة للشخص والخصيات التي تساهم في سياق ما ، مثل : الاحداث

اللغوية او الكلامية التي ينطق بها المشتركون في الموقف .

وكذلك الاحداث غير اللغوية التي تصدر عن المشتركين مثل الاشارات والايحاءات ، الخ ..
ثانيا : دراسة الاثنياء والادوات ذات العلاقة بالموقف .

ثالثا : اثر او نتيجة الحدث اللغوي .

ولقد ساهم مالبينوفسكى وفريث بدراسة للسياق ، في تشجيع الباحث اللغوي في الاعلام حين يتعمق على دراسة اللغة من الناحية النحوية والصوتية واللفظية الا يهمل « الموقف » بشخصه ونظمه وعاداته .
والراى عندي ان دراسة السياق في لغة الاعلام تنفيذ في فحص مضمون الاتصال في مقابل الاهداف منه ، سواء كانت صريحة او ضمنية . كما تنفيذ في تصحيح التاكيدات الخلطية في مضمون ولغة الاعلام على ضوء الهدف منه .

وتساعدنا دراسة السياق في لغة الاعلام على انشاء معايير وتطبيقها على الاتصال ، عن ثلاثة طرق :
اولا : تقويم الاداء بناء على معيار قبلية ، مثل تحقيق نوع من التوازن او وجود هدف اجتماعي .
ثانيا : تقويم الاداء بمقارنة جزء من سياق المضمون بآخر .

ثالثا : تقويم الاداء بمقارنة سياق المضمون بمحيط خارجي ليس من المضمون .

وقد تم تطبيق المعيار القبلية على مضمون الموضوعات التي تتناولها الصحف في بعض البلاد وفي فترة محددة وعلى طرق عرض هذه الموضوعات للتأكد من مقدار الالفاء او التشويه او عدم الدقة .

وتوالت دراسات اخرى طرق معالجة العمل في البرامج الاخبارية في الاذاعة ، وطرق معالجة قانون معين في عدد من الجرائد ، وطرق عرض الاتباء المطية في المجلات الاسبوعية . على ان الاساس الثاني للتقويم يتضمن اقامة معيار داخلية ، لمقارنة جزء من سياق المضمون بآخر . ففي دراسة « السلوك الاخلاقي وغير الاخلاقي لعدد من الصحف المطية للصحافة الامريكية تم تقويم الصحف على اساس معيار متوسط ، بين الاجتماعية والحسية لدى مجموعة من الصحف التي تهتم اهتماما كبيرا بالاتباء الاجتماعية » .

واستمدت المعيار من تحليل مساحات عناوين الصفحة الاولى المخصصة لثلاثة موضوعات « شديدة الاجتماعية » هي (المشكلات الاجنبية ، ودولية الولايات المتحدة ، والوطنية) وثلاثة موضوعات حسية هي (حاس المال ، والجيش ، المال والجنس) . ويطرح الاخيرة من الاولى نحصل على درجة واحدة لمقياس (الاجتماعية الحسية) لكل صحيفة . طبق هذا على اربعين صحيفة ورتبت تنازليا ، وقورن بينها على اساس ان هذا هو معيار تحديد احسن صحيفة . ولا شك ان كفاءة المعايير المستخدمة والتي تستعين بفراسة السياق من شأنها ان تزيد من كفاءة تقويم وسائل الاتصال الاعلامية .

نحو منهج علم لدراسة اللغة الاعلامية :

ونخلص مما سبق ، الى ان اللغة الاعلامية يمكن ان تفيد من دراسات علم اللغة بفروعه المختلفة ، وما تهدي اليه من ظواهر لغوية ، وما تكتشفه من بحوث فنية تفيد في دراسة لغة الاعلام وتهذيب الفاظها وتوسيع نطاقها وترقية مفرداتها وادخال مفردات جديدة . على مفرداتها ، وتدعيم خصائص هذه اللغة الاعلامية من تبسيط وسلامة ووضوح ، واقترب شديد من لغة الحديث الواقع الحى المتقف ، دون اسفاف او هبوط الى العامية واستخدام اللغة العملية التي تعبر عن الحياة والحركة والعمل والانجاز هي اللغة الاعلامية المؤثرة حقا .

ولذلك فان المنهج العام لدراسة اللغة الاعلامية يولى وجهه في مشكلاتها شطر علم اللغة ، ويستمد منه المعونة ، ويتوصل الى النتائج العلمية التطبيقية في تطويرها عن طريق قوانين علم اللغة وقواعده ، ولذلك فان بحوث اللغة الاعلامية لا يمكن ان تنفصل عن بحوث علم اللغة ، ولكنها في نفس الوقت تنصل اتصالا وثيقا بعلوم الاتصال بالجمهير ، وذلك ان اللغة الاعلامية لغة فن تطبيقي وليس فنا تجريديا . والفن التطبيقي لا يقصد لذاته ، وانما يهدف الى تحقيق غايات معينة ، وان يؤدي وظائف محددة ، واللغة الاعلامية ترتبط بست وظائف رئيسية هي : الاخبار او الاعلام ، والتفسير او الشرح والتوجيه او الارشاد ، والتسليية او الامتاع والتسويق او الاعلان والتعليم او التنشئة الاجتماعية وليست اللغة

الاعلامية مرتبطة بعلوم اللغة والاتصال بالجمهير فحسب ، بل ان بحوثها متصلة كذلك بشواهد وادلة متكاملة تقدمها المصادر العديدة في الفلسفة وعلم النفس والفنون والبلاغة والادب وعلم الاجتماع والسياسة ، وعلم النفس الطبيعي والمناهج النظرية واثار الاتصال ونتائجها .

وضفوة القول ان المنهج الاعلامي في دراسة اللغة يتصل بكل طوائف العلوم ، غير ان صلته بالفراد فصيلته ونعنى بها علوم الاتصال بالجمهير ، اشد من صلته بالطوائف الاخرى .

وعلاقة اللغة الاعلامية بعلم اللغة هي علاقة تأثير وتأثر ، فاذا كنا ننظر لعلاقة التأثير على النحو السابق ، فان علاقة التأثير بين اللغة الاعلامية وعلم اللغة ، هي علاقة التنمية اللغوية ، واهم عوامل التأثير في حياة اللغة ، ذلك ان اللغة في مختلف مظاهر حياتها - شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الاخرى - ترتبط ارتباطا وثيقا بما عداها من مؤثرات العمران ، ولعل اهم هذه العوامل التي تؤثر فيها وسائل الاتصال الاعلامية التي تعكس مقتضيات الحياة الاجتماعية وشؤونها ، فهي تسهم في نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل ، وفي هجر كلمات كانت مستخدمة فيها او انقراضها انقراضا تليا .

ذلك ان وسائل الاتصال الاعلامية تعكس اهم العوامل التي تدعو الى نشأة كلمات في اللغة ، كمقتضيات الحاجة الى تسمية مستحدث اجتماعي جديد ، سواء كان نظما اجتماعية واقتصادية ، او نظرية جديدة علمية او فلسفية ، او مختصرا ماديا جديدا ، الخ ..

ذلك ان الاعلام من حضارى ، لا يزدهر الا في البيئة الصالحة للتقدم والتطور . ففي الصحافة المصرية الحديثة ، نلاحظ انها قد ورثت ، عند ظهورها في القرن الثامن عشر ، عن القرون السابقة اسلوبا عتيقا يميل الى التكلف ، ولغة ركيكة تميل الى البهرجة ، ثم اخذ هذا الاسلوب يتخلى شيئا فشيئا عن هذا التكلف ، حتى ظهرت صحيفة « المؤيد » فوجدنا انفسنا امام كتاب يميزون بين الاسلوب الادبى والاسلوب الصحفى واخذ الفن الصحفى في التبلور والتطور حتى وقتنا الحاضر . واذا ذلك وجدنا له لغة تبعدها ظاهرا عن لغة الادب . فقد استحدث الصحفيون الحاليون

والعلامات اللغوية هي العنصر الاساسى فى اللغة .
وهى وحدة تتألف من شكل صوتى (جسم صوتى)
او (دال) معنى (مضمون) او (دلالة) .

والمقصود بمعنى العلاقة اللغوية : الصورة
للشعورية التى تتم فى وعى الافراد المنتمين للجماعة
اللغوية ، وهى صور متصلة بالشكل الصوتى المعين
للعلامة ومرتبطة بها ارتباطا متعسفا . اى ان العلامة
اللغوية ليست هى الشكل الصوتى والصورة الكتابية
المقابلة له فحسب ، بل لا بد فيها من وجود رابططة
تجمع بين ذلك الشكل الصوتى المادى والمضمون
الشعورى الواعى . وبهذا تكون العلامة اللغوية
وهى ذات شقين .

والعلامة اللغوية تتمثل بشكل مادى محدد فى كلمات
ووسائل نحوية وصرفية تعبر عن العلاقات القائمة
بين الكلمات ، اى انها تخلق من مجموعة الكلمات
المتراصة فى احدى اللغات جملا سليمة من ناحية
القواعد النحوية ، ولذلك فان الاعلام اللغوى ، يركز
على دراسة هذا الشكل المادى للعلامة اللغوية كذلك .
كما يعنى بدراسة معنى الكلمة ، باعتبارها تعكس
جزءا محدد من الواقع الموضوعى فى وعى الفرد
المنتمى لجماعة لغوية ، ولان هذا المعنى عبارة عن
فكرة ، وهذه الفكرة هى فى الوقت نفسه العنصر
الاساسى من الصورة التى تعكس الواقع الموضوعى .

وناسيا على ذلك تتحدد الوظيفة الاجتماعية
الطوية للغة ، والتى يعنى بدراسة علم الاعلام ، لما
تقوم به من دور كبير الآن فى حياة العالم السيلسية
والترىوية . ويزداد بوجه خاص فى عصر الصراع بين
الاستعمار والاشتراكية وبين قوى الاستغلال والرجعية
وقوى التقدم والتطور - ان الجانبين يناقشان فى اجتذاب
الافراد الى صفوفهم بحيث يحدد كل منهم موقفه من
الصراع الدائر ويشركه فيه بدوره . وتقرب الوسائل
التي يلجأون اليها فى سبيل ذلك هى الكلمة .

لهذا كله يصبح من الزم الواجبات التى تواجه علم
الاعلام اليوم ان يبحث فى اثر اللغة على تفكير الناس
وهمهم للامور وتوجيه مشاعرهم وارادتهم ومسلكتهم
المعملى ، والدور الذى يمكن ان تؤديه وسائل الاعلام
المختلفة فى احداث الاثر المطلوب .

تراكيب جديدة لم تخطر للادباء او اللغويين الاولين .
فبدلا من قولهم : انه لا بد من توضيح المسألة توضيحا
لا ودع مجالاً للشك بأحدهم يقولون : تريد ان نضع
النقط فوق الحروف ، وهناك صفات ونعوت جديدة
لا وجود لها فى الكتب القديمة مثل : الحقيقة الصارخة ،
والاكتوبة البيضاء ، والليلة الحمراء ، والدعايسة
السوداء ، والغيرة الصفراء .

وفى موضع آخر من هذا البحث ، سنرى مستوى
الدور الذى يمكن ان يؤديه الاعلام فى الثبوت اللغوية ،
وحفظ اللغة ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ،
وتثقيفها من نواحي المفردات والتواعد والاساليب ،
وتسجيل آثارها ، واستخدامها فى مختلف اشكال وفنون
التحرير الصحفى والاعلامى .

ونخلص مما تقدم جميعا ، الى ان المنهج العام الذى
يشق طريقه لدراسة اللغة الاعلامية يعرف عددا من
المناهج ينطلق من ثمار علم اللغة المتعارن ويمضى الى
علم اللغة ويبحث فى العلاقات اللغوية فى الاعلام العربى
المعاصر فى ضوء علم اللغة الوصفى او الطسوم
الاجتماعية والنفسية ، وينظر كذلك فى تضاهي اللغة
الاعلامية على هذا المنهج التقابلى وعلم اللغة التطبيقي .

والسير بهذا المنهج خطوات كبيرة ، يتسلف على
التوصية بعناية اقسام الصحافة ومعاهد الاعلام باللغة
العربية اهتماما كبيرا ببحث هذه اللغوية بحثا علميا
ينطلق من محاولة التصور ، التى اثبتناها لهما سبق ،
نحو منهج علم لدراسة اللغة الاعلامية وتياهما
بوظيفتها ، فنحن نستطيع ان ننظر الى اللغة على اعتبار
انها نظام من العلامات الصوتية يتشأ ويتطور مرتبطا
بتاريخ الناقلين بهذه اللغة ، واستخدم وسيلة للتواصل
ووسطا للتفكير ومجالا للتعبير نحو الامتلاك والمواطف
والمشاعر .

وعلى ذلك فان علم الاعلام اللغوى ، يشق طريقا
جديدا متخصصا فى تأثير اللغة على الناس ، ويتحدد
التواصل اللغوى فى مفهومه بعملية تبذل المعلومات
بين الافراد والجماعات . ويظهر هذا التواصل
اللغوى على شكل عبارات او تعبيرات شفهية او
كتابية تتبادلها الاطراف فى موقف معين ، لغرض معين ،
عن واقعية معينة .

الفصل الرابع

اللغة الاعلامية

اللغة الاعلامية هي اللغة العربية الفصحى :

وتقدم اننا لا نمنى باللغة الاعلامية ، ما توصف به اللغة العلمية من تجريد نظري ، انما نريد باللغة الاعلامية انها لغة بنيت على نسق عملي اجتماعي عادي ، فهي في جملتها فن يستخدم في الصحافة والاعلام بوجه عام .

وهذه الخاصة في اللغة العربية ظاهرة من تركيب مفرداتها وقواعدها تركيبا يرمى الى التمنجج والتبسيط ، اخص الخصائص في اللغة الاعلامية ، التي تستخدم الرموز الجسدة او الانماط او النماذج التي تقوم مقام التجربة الفردية او الجماعية لتنظيم التجارب الانسانية المعيشية .

فاللغة العربية في طليعة اللغات الاعلامية بين لغات العالم الشرقية او الغربية ، ولما جاء الاسلام كانت اللغة العربية مزدهرة مكتملة النمو تنتظم شبه الجزيرة العربية العشرية .

ولعل ذلك يرجع الى ان العرب كانوا امة بيان ، وللکلام عندهم مكنه العمل لان القول والعمل عندهم مقترنان لا ينفكان ومتقابلان لا يتفاضلان ، فليس القول صورة مجسمة ومكبرة عن العمل كما هي حال الامم المجالية في الكلام ولا قاصرا عاجزا عن تصويره كما هي حال الامم البكينة العاجزة في استهلاله فلا غرابة بعد هذا في ان نجد الكثير من خصائص العربية وخصالهم في لغتهم (78) .

وتلك السمة البارزة في اللغة العربية ، هي التي جعلت استاذنا المفكر الراحل عباس محمود العقاد (79) يذهب الى ان علماء اللغات لا يعرفون لغة قوم تتراعى لنا صفاتهم وصفات اوطنتهم من كلماتهم والفاظهم كما تتراعى لنا اطوار المجتمع العربي من مادة الفاظه ومفرداته في اسلوب الواقع واسلوب المجاز .

يقول الاستاذ العقاد : « ان المجتمع العربي في قوامه الاصيل انما كان مجتمع رحلة وبرعي ، وان

(78) محمد المبارك : « خصائص العربية » ص 41
(79) « اللغة الشاعرة » - ص : 61 .

الكلمات التي تدل على معنى الجماعة في لسان العرب قلما تخلو من الاشارة الى الرحلة والرعاية . فالإشارة هي الجماعة التي تؤم مكانا واحدا او تنضم بقيادة واحدة .

والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق ، والطائفة هي الجماعة التي تطوف معا ، والقبيلة هي الجماعة التي تسير الى قبلة مشتركة ، والفصيلة هي الجماعة التي تفرق في مسلك واحد ، والفئة هي الجماعة التي تنفي الى ظل واحد ، والجيل من الناس هم الذين يشتركون في مجال واحد ، والبيئة هي الوطن الذي يبوء اليه اصحابه بعد الرحلة عنه ، والنفر من القوم من ينفرون معا للقتال او لغيرة ، والقوم في جملتهم هم الذين « يقومون » قومة واحدة للقتال ناصة ، ولهذا اطلقت اولا على الرجال ثم شملت الرجال والنساء ، ومن هنا قوله تعالى : « ولا نساء من نساء » بعد قوله : « لا يسخر قوم من قوم » ، ومنه قول زهير :

وما ادري ، ولست اخال ادري
اقوم آل حصن ام نساء ؟

ومن ذلك بين ان اللغة العربية لغة دالة ، ترمي الى التمنجج والتبسيط ، من خلال منهج لوضع الالفاظ للمعاني الجديدة ، يختار صفة من صفات الشئ الذي يراد تسميته او بعض اجزائه او نواحيه او تحديده وظيفته وعمله واشتقاق لفظ يدل عليه من اللفظ الدال على صفة او جزئه او ناحيته او وظيفته .

في هذا الموضوع تختلف الامم وتتفاوت في نظرتها الى الاشياء وفي وضع الالفاظ الجديدة التي تطلقها على المسيمات . وفي اللغة العربية اظنة قديمة وحديثة من الالفاظ العربية ، تؤكد هذه الصلة بين المذلول الاصيل للفظ والمعنى المقصود منه او الشئ المسس . فمن الالفاظ القديمة : السهل والسماء والقلب والمادة والانسان والبيت والعقل والفضل والشرف ؛ يلاحظ في هذه الالفاظ ان العرب اختاروا صفة السهولة في السهل والسمو في السماء والتقلب في القلب والمود والتكرار في المادة والانس في الانسان والبيت في البيت والعقل وهو الرطب في العقل لانه يعقل صاحبه عن الشر

والله اعلم بالصواب
من يرمي به خطا لا يرمي به خطا

والفضل وهو الزيادة في الفضل المعنوي والارتفاع في الشرف (80) .

ولو نظرنا الى هذه الالفاظ الاخرى : عامل ووال وجهاد وزكاة وهي الفاظ نشأت بعد الاسلام ووضعت لمعان جديدة لوجدنا انها اخذت من العمل ، والولاية ، والجهد ، والزكاة بمعنى النماء او الطهارة ، ومثل ذلك يقال عن الالفاظ المستحدثة في عصرنا كالسيارة من السير والنظارات من المنظر والديبابة من دب على ارض والدراجة من درج والجامعة من الجمع بين مفرد العلم المختلفة . ولو قابلنا بين هذه الالفاظ وامثالها من اللغات الاخرى كالفرنسية والانجليزية لوجدنا اختلافا في طريقة التسمية وفي اختيار الصفة التي بها تكون التسمية ، فانه يلاحظ اولا ان اللغات الاخرى قلما تحتفظ بالمعاني الاصلية للالفاظ الدالة على امثال المسنيات ، اما العربية فهي في اغلب الاحوال تحتفظ بالمعاني الاصلية للالفاظ التي تطلقها على مسميات جديدة كما هي الحال في الالفاظ التي استشهدنا بها وبذلك تبقى علة التسمية ظاهرة في الغالب ، وقد تكون خفية ولكنها تعرف لادنى تأمل ونظر . وقد تدق احيانا وتخفى احيانا اخرى ، فالفاظ العربية في الجملة محللة (81) .

ان العرب يذهبون حين « التسمية » او « التسمية » الى اخص صفات المسمى او النموذج وبرزها ، او الى عمله الاساسي ووظيفته اكثر من ذهبهم الى ظاهره وشكله الخارجى او تركيبه واجزائه . فبينما نرى الفرنسي مثلا قد اطلق لفظ Bicyclette اي ذات الدواليبين على اداة الركوب المعروفة بهذا عندهم اطلق عليها العربي لفظ الدراجة ، فالفرنسي خلطها الى اجزائها ونظرا الى تركيبها والى حالتها الساكنة ونظر العربي الى وظيفتها وعملها وحركتها فسمها دراجة ، وكذلك السيارة سماها الفرنسي Automobile اي المتحرك بنفسه وسمها العربي بلفظ يدل على عملها ، كذلك قل في المكواة وهي في الفرنسية Fer à repasser الحديدية التي يتكرر امرارها ، وفي المطار وهو في الفرنسية Aérodrome ومعناها الحرفى السباق الجوى وفي الإنجليزية

Airport اي الميناء الجوى ، وقد تكون التسمية فيها مشبهة للطريقة العربية في الدلالة على العمل او الصفة البارزة لفظ Moteur اي المحرك .

وقد لاحظ الاستاذ العقاد (82) هذا المعنى في دلالة اسماء الامكنة ، فهي دلالة مضطردة على هذا المثال في اكثر البقاع التي تسكن او يرحل منها واليها .

فالمنزىل حيث ينزل الانسان ، والبيت حيث يبيت بالليل ، وكذلك الموضع والمرجع والموى وكذلك المسافة بين مكان ومكان انما هي الموضع الذي يساف ترابه للاهتداء الى الطريق .

وقد يدل اسم المكان بمادته على عيشة « المشاع » في البداية الاولى ، فيطلق اسم « القصر » على المكان الذي يبنى مقصورا على بانيه ، خلافا للبيوت والخياه التي تقام في كل مكان .

واسم المكان معناه « التمسكن » خلافا للنقلة والمنتقل بغير استقرار .

ويلاحظ هذا ايضا في الكلمات التي تدل على العشرة او على الرابطة الاجتماعية بين الآحاد . فالصاحب هو من يشى معك في السفر ، وكذلك الرفيق الذي يؤخذ مع الطريق وقبل الطريق ، وكذلك الزميل من صحبة الزاملة ، والقريب الذي يقترب من منزلك ، وتناسبه كلمة « العدد » للخصم الذي يعدوك او يعدو على جوارك .

ونتبع هذا المعنى ، او نقراه في المعاني المجازية ، فنقول المذهب للطريقة الفكرية كما نقول المنهج والمشرب والنحو والمصدر والمورد والمقام والمقلبة ، ونطلق السيرة على الترجمة وهي من سار يسير ، ونطلق القصة على الحكاية وهي من نص الاثر ، ونطلق الاثر على المخلفات وهي من بقايا المواطنين والاقدام .

ونعتقد ان النظر في الفاظ اللغة من هذه الناحية متمم لدراسة اللغة الاعلامية ، سواء منها ما يراد لتأكيد عوامل النجاح في « الرسالة الاعلامية » للبلوغ والتاثير في الجماهير ، او لتقرير قواعد هذه اللغة الاعلامية من حيث ما ترمى اليه من نمذجة وتبسيط او للتفريق بين لغة الاعلام ولغة الادب .

(80) محمد المبارك : « خصائص العربية » - ص : 51 - ايضا « فقه اللغة » - ص : 129 - 195 .

(81) المرجع السابق .

(82) « اللغة الشاعرة » - ص : 61 .

فكل كلمة في اللغة الاعلامية يجب ان تكون مفهومة من جمهور المستقبلين ، كما يجب ان تعرض بطريقة جذابة تحقق يسر القراءة او الاستماع ، اما فنون التورية وازدواج المعاني او الهلالت الانفعالية حول الالفاظ ، وغيرها من فنون الادب التي تؤدي المعاني وخاصة في الشعر ، فهي بعيدة تماما عن لغة الاعلام لانها تقطع تيار الاتصال الذي يجب ان يظل مجراه صافيا نهيرا .

وإذا كانت اللغة العربية كما وصفها الاستاذ العقاد (83) « اللغة الشاعرة » ، لغة بنيت على نسق الشعر في اصوله الفنية والموسيقية ، فهي في جملتها فن منظوم منسق الازران والاصوات ، لا تتفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء . فان اللغة العربية كذلك ، لغة اعلامية ، ونريد بذلك انها لغة بنيت على نسق الفن الاعلامي بمفهومه الحديث تعرض مواد مبسطة يسهل على الجماهير استيعابها وفهمها ، كما انها تتبشى مع قيم المجتمع وعاداته وتقاليدته فالالفاظ العربية تدل على تفكير العرب ونظرتهم الى الاشياء ذلك ان في تسميتهم لها باسم بعينه ، وفي اطلاق لفظ دون غيره عليه ، واختيار صفة من صفاته ، ما يدل على اتجاههم في التفكير وتقييمهم للاشياء .

فاستعمالهم العامل للوالى والحاكم يدل على انهم نهوا الولاية بعد الاسلام على انها عمل من الاعمال . واستعمالهم لفظ « المرء المرأة » يدل على تساوى الرجل والمرأة في الاصل عندهم ولفظ المروءة مشتق منها معا ومجناه الصفات المستحسنة المأخوذة من اخلاق الانسان فترا كان ام انثى .

الفكرة الزمنية في اللغة العربية :

من اهم المقاييس التي يعرف بها ارتقاء اللغات : مقياس الدلالة على الزمن في افعالها . ثم في سائر النواظير .

وهذا المقياس يصبح من اهم مظاهر اللغة الاعلامية ، لان الصحفيين او رجال الاعلام يكتبون لكل الناس في كل

الاقوات ، وليس لجزء من الناس في كل الاوقات او لكل الناس بعضا من الوقت ، فكل كلمة او كل مجموعة من الكلمات تتضمنها عبارات النص الاعلامي يجب ان تكون مفهومة من عامة القراء وجمهور المستقبلين ، ولهذا تظهر بلاغة اللغة الاعلامية من علامات الزمن في افعال لغتها الام .

لان عامل الوقت يلعب دورا رئيسيا في تغطية الاخبار وتحريرها واخراجها من جهة ، كما تميز الاعلام بالدورية والايقاع من جهة اخرى ، فهو يروى حدثا بعينه في اطار زمن محدد ، فاللغة التي تدل على الزمن بعلامات مقرررة في الفعل انسب واصح للاعلام من اللغة التي خلت من تلك العلامات . وبمقدار الدلالة تكون هذه اللغة اعلامية اكثر من تلك .

ولا نحسب ان لغة نفهمها - او نفهم عنها - كما يقول الاستاذ العقاد (84) قد اشتملت على وسائل للتمييز بين الاوقات كما اشتملت عليها اللغة العربية . سواء نظرنا الى ضرورات سكانها او نظرنا الى تصريف افعالها وكلماتها .

فكل لحظة من لحظات النهار والليل قد كان لها شأنها في حياة سكان البادية بين السفر والاقامة والخل والترحال . فمنها ما هو صالح لبدء السير ، وما هو صالح للراحة القصيرة ، وما هو صالح للراحة الطويلة ، وما ليس يصلح لغير السكنة والاستقرار .

ولهذا وجدت كلمات البكرة والضحى او الغدوة والنهيرة والنائلة والمسر والاصيل والمغرب والعشاء والهزيع الاول من الليل والهزيع الاوسط والموهن والسحر والفجر والشروق .. ويكاد التقسيم على هذا النحو ان ينحصر بالساعات على صعوبة التفرقة بين هذه الاوقات في كثير من اللغات الاخرى بغير الجبل والتراكيب (85) .

وكل موسم من مواسم السنة له شأنه في المرعى والانتاج وطلب الماء او التجارة او الامان ولهذا وجدت اسماء المواسم والفصول جميعا ووجدت معها ثلاثة اسماء مختلفة للدلالة على الدورة حول الشمس في مصطلح الفلكيين : فهي السنة وهي العام وهي الحول .

(83) « اللغة الشاعرة » - ص : 8 .

(84) « اللغة الشاعرة » - ص : 71 وما بعدها .

(85) المرجع السابق ص 72 - 73 .

ولكل منها موضعه في التعبير ، بل لهذا وجدت للوقوات كلمات مختلفة على حسب الطول والقصر في المدة . فالمدة شاملة لجميع المقادير من امتداد الزمن . وتنطوي فيها اللحظة او اللحظة للوقت القصير والبرهة والروح للوقت الطويل . والفترة للمدة المعترضة بين وقتين . بل وجد فيها الحين للزمن المقصود المعين ، والعهد للزمن المعهود المقترن بمناسباته ، والزمن للدلالة على جنس الوقت كفيما كان ، والدهر للجهة المحيطة بجميع الأزمنة والمعهود والاحيان .

مثل هذا الاحساس بالزمن لا تصوره الكلمات في لغة من اللغات التي تفهمها على صورة ادق من هذه الصورة ولا ادل على الفوارق بين اجزائها كما يقول استاذنا العقاد « فان الزمن الماضي » مهم عند ابناء البادية العربية في كل عهد من عهوده . لانه مستودع المفارخ والانساب والثارات والسوابق والذكريات ، وليس من المصادفة ان يسمى التاريخ باسم الايام وان يعرف لكل يوم اثر فيها كان وما يكون .

« اما الزمن الحاضر فلا غرابة في العناية باجزائه وتقسيماته . لان كل لحظة منه ذات شأن في الحركة والاقامة . وفي المرعى والتجارة ، وفي الحرب والامان . » وليس من الطبيعي ان يبلغ احساس قوم بالوقت هذا المبلغ ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الاحساس به في مختلف مواضعه ومناسباته .

فاذا نظرنا فيما يقوله النحاة من العرب في هذا الصدد وجدناهم يربطون ربطا وثيقا بين الصيغة والزمن ، فيقسمون الازمان الى ثلاثة : الماضي والحال والمستقبل مكثفين بتلك الازمنة الاساسية على ان بعض المتكلمين من العرب قد انكر وجود الزمن الحالي ورآه مندرجا في الماضي والمستقبل بعضه في الماضي والباقى في المستقبل ، ولكن جمهور النحاة يبنون

فيقول ابن يعيش « وقد انكر بعض المتكلمين فعل الحال ، وقال ان كان قد وجد فيكون ماضيا ، والا فهو مستقبل ، وليس ثم ثالث ، والحق ما ذكرنا ، وان لطف زمان الحال » .

وقد فطن لهذه الحقيقة عالم من اقدر علماء الاجروميات والمباحث اللسانية — على حد تعبير العقاد (87) — ففى كتاب اصول الاجرومية الانجليزية لمؤلفة الدكتور توجيرسن « يقول هذا الباحث المحقق » ان لنا — على الاصح ان نحسب ان الزمن ينقسم الى جزئين : ماض ومستقبل . وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كئنه النقطة الهندسية التي لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع ولكنها على الدوام منصوبة الى المستقبل .

وهذه التفرقة الفلسفية المنطقية ملحوظة في التفرقة الاجرومية بين الحاضر والمستقبل في لغة العرب — كما يقول العقاد — فاذا اراد المتكلم ان يذكر المستقبل على ما يأتى وبمعنى الانشاء واستحداث الفعل على الطلب نصيغة المضارع تدل على الحال والاستقبال ، وصيغة المضارع مسبوقه بالسين تدل على المستقبل القريب ، ومسبوقه « وسوف » تدل على المستقبل البعيد .

ومن اشهر اقوال النحاة العرب ما جاء في فقه اللغة للثعالبي وغيره من كتب اللغة ، من ان المضارع قد يستعمل الماضي مكان المضارع ، مثل قوله تعالى : « اتى امر الله فلا تستعجلون » اى سيأتى وقوله « واتبعوا ما تتلو الشياطين » اى تلته ومثله وكان الله غفورا رحيفا اى ولا يزال ، الخ - ويقرر علماء البلاغة ان التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي انما يكون تنبيها على تحقيق وقوعه ويمثلون لذلك بقوله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض » اى يصعق ومن اسرار الفكرة الزمنية في اللغة العربية الاستطالات المختلفة للفعل « اتى » فنجد في القرآن الكريم : « اتى امر الله فلا تستعجلون » .

— قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد

— فتولى فرعون نجوع كيده ثم اتى .

— انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث

أتى .

— الا من اتى الله بقلب سليم .

— كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسل الا قالوا

ساحر .

(87) اللغة الشاعرة ص 76 .

(86) ابن يعيش ص 4 الجزء السابع .

— هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا .

وفي هذه الاستعمالات القرآنية للفعل « اتى » نجد اساليب مختلفة ففى الآيه الاولى زمن الايمان هو المستقبل ، وفى الثانية هو ما بعد الماضى ، وفى الثالثة ما بعد الماضى ، وفى الثالثة ما بعد الماضى ، ايضا ، وفى الرابعة للحال المستمرة التى تشبه الحقائق الثابتة ، وفى الخامسة للمستقبل ، وفى السادسة لما قبل الماضى ، وفى السابعة للماضى المؤكد .

ويحق لنا ان نقول مع العقاد : ان اللغة العربية لغة الزمن بكثير من معنى واحد : لغة الزمن لانها تحسن التعبير عنه ، ولغة الزمن لانها قادرة على مساندة الزمن فى عصرنا هذا وفيما يلى من عصور .

اللغة العربية لغة مصروفية :

تقدم اتنا فى لغة الاعلام ، لا بد ان نفرق فى الوظيفة اللغوية بين الاسلوب « المعرفى » اى الذى يؤدى الى معلومات والاسلوب « اللامعرفى » الذى يؤدى الى خرافات واوهام ، لتنقية اللغة الاعلامية من الاستعمال التخديرى للغة فى الدعاية والسياسة .

فبعد ما يقول شخص لآخر « صباح الخير » فانه لا يعنى التفسير الاشارى للمبارة وانما يريد ان يحدث تأثيرا عاطفيا ، او اقامة صلة طيبة بصديقه .

وعند ما اشار تشرشل الى الامان بلفظ الهون Huns كان يريد اثاره الكراهية ضدهم ولا يريد ان يرجع بنا الى اصول القبائل الجرمانية . وعند ما يسب شخصا آخر ناعتا اياه بلته حيوان او كلب ، فانه لا يريد المعنى الاشارى او الاخبارى بقدر ما يريد اثاره الغضب والتحقير والازدراء (88) .

ومع ان اللفظ ليس الا رمزا للدلالة على الشئ فاننا كما يقول الدكتور ابراهيم امام — نلاحظ فى مجتمعات كثيرة ان هناك من يخلط بين الرمز والشئ ، او بين اللفظ ومخلوله ، فالراية الحمراء رمز الخطر ولكنها ليست الخطر نفسه . وكلمة اسد ليست هى

الاسد نفسه ، وانما هى رمز له . وقد يبدو ان هذا الكلام من البساطة بحيث يعتبر من البديهيات ، ولكننا نجد البدائين بل والكثير من المحدثين ايضا يخلطون بين الرمز والشئ .

فمن المعتقدات الشائعة فى مصر ان الرقى والتمايم لها قوة السحر ، وان الرموز تؤثر تأثيرا خيرا او شريرا على الناس ولكى يمنع الحسد ، ويمنع بعض الناس صورة او تمثالا للحسود ، ثم توخز بالابسر ، وتظن بالالفاظ ، واخيرا تضرهم فيها الناس .

وفى جنوب ايطاليا — لا يلفظ اسم الشخص الحسود اتقاء لخطره اذ يعتقد الايطاليون ان مجرد نطق الاسم خطر داهم ، لذلك يثيرون اليه بعبارة « الذى لا يسمى » وكلمة الموت لا تلفظ صراحة فى معظم اللغات وانما يستعاض عنها بالالفاظ وعبارات مختلفة ، دفعا لشر هذا الرمز .

وانراى هو — كما يذهب الدكتور امام (89) — الى ان الرموز اللغوية قد تطورت بتطور المجتمع والمعتقدات السائدة فيه ففى البداية كانت اللغة تتأثر بمعتقدات السحر ثم تطورت فاصبحت عملية وجدانية واخيرا بدأت مرحلة التعبير العقلى . فالمجتمع البدائى يؤمن بقوة السحر الكامنة فى الالفاظ وارتباطها ارتباطا وثيقا بلاشياء وكان المصريون القدماء يعتقدون باله هو الكلمة ولا تزال هذه العقيدة سائدة فى معظم الاديان ولكن بصورة تتناسب مع اتوحيد ثم تلورت اللغة فى مدارج التعبير العاطفى الوجدانى ، فاستغلها الكهنة للتأثير فى الناس بالعبارات الغامضة والكلمات ذات الجرس الموسيقى ، والتى تشبه المخنر .

ولا شك ان الاستعمال التخديرى للغة فى السياسة والدعاية لا يزال منتشرنا فالخطب المسومة ، والالفاظ الرنانة ، والعبارات العاطفية الغامضة والرموز الاتفعلية تؤثر جميعا فى عواطف الناس وخاصة فى المستويات الحضارية المختلفة . وهذا الاستعمال التخديرى للغة هو الذى تشجعه الدعاية ، اما الاعلام فيستعمل فيه التعبير العقلى الفكرى والناقشة الواضحة الناضجة .

(88) عبد الله امام العلاقات العامة والمجتمع — ص : 229 .

(89) المرجع السابق — ص : 23 .

وقد كثر حديث اللغويين عن هذين النوعين ، فنرى في كتاب Alecking فصولا خمسة لما سماه : النثر العلمى المعرفى والنثر العاطفى ، وتحدث الفصول عن خصائص كل النوعين فى الالفاظ والعبارات والموضوع ، وما يثيره كل من النوعين فى الازهان والمعقول ، وما يهدف اليه النثر المعرفى من محاولة التعبير عن الافكار بقدر مساو من العبارات ، رغبة فى ابراز الحقائق المجردة دون مبالغة فيها ودون التآثر فى الازهان بالصور الخيالية والمجازات اما فى النثر العاطفى فيؤكد المؤلف ان الامر يكاد يقتصر على مدلولات الالفاظ ، بل يتعدى هذا الى ما يلى المدلولات من ظلال المعانى ، ولما تثيره فى الذهن من صور واخيلة يتأثر بها السامع او القارئ ، وتستنتج منها الازهان من المعانى فنون ما تحتمله تلك الالفاظ او العبارات ولذلك يمكن الربط بين النثر العاطفى والشعر ، او يمكن ان يعد نوعا من الشعر غير منظوم .

ومع هذا يرى صاحب هذا الكتاب ان ليس من اليسير ان نضع حدا فاصلا بين النوعين : المعرفى والعاطفى ، فلا يكاد يخلو المعرفى من كل عاطفة خلو تاما ، كما نرى فى العاطفى احيانا عبارات لا تهدف الا الى التعبير عن الحقائق المرده . ويومئ المؤلف الى ترتيب الكلمات فى جمل كل من نوعين قد يختلف ، فلا نرى نظما واحدا فى هندسة الجمل .

ولكن « فندريس » يذهب فى كتابه « اللغة » الى الفصل بين النوعين حتى كاد يجعل كلا منهما لغة مستقلة فيتخذ من اسلوب التخاطب بين الناس ميدانا لتلك اللغة الانفعالية ، ومن الاسلوب الكتابى ميدانا للغة المنطقية .

ولعل اوضح ما فى علاجه لهذين النوعين شرحه لاختلاف ترتيب الكلمات فى كل منهما ، اذ يقول : « ينحصر الفرق الاساسى بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية فى تكوين الجملة . وهذا الفرق ينبثق جليا عند ما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة فاللغة المكتوبة واللغة المتكلمة تتعدان فى الفرنسية احدهما عن الاخرى الى حد انه لا يتكلم اطلاقا كما يكتب ، الى جانب الاختلاف فى المفردات ، وذلك لان الترتيب الذى تتماusk فيه الكلمات فى الجملة المكتوبة ، ينقسم

دائما فى الجملة المتكلمة ان قليلا او كثيرا . وهذه الخاصة المعرفية فى اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة الى تركيب مفرداتها على حدة ، الى تركيب قواعدها وعباراتها فى بنية الشكل الصحفى وفنون الاعلام المختلفة .

فاللغة العربية فى طبيعة تركيبها لا تحتاج الى الجمل الخبرية « الاعلالية » فهما الى اعمال الثبات او ما يسمى فى اللغات الغربية « فعل الكينونة » فنحن نقول فى العربية على سبيل الاخبار « فلان شجاع » دون حاجة مثلهم الى ان نقول : فلان هو شجاع ، ونقول : « كل انسان فان » دون حاجة الى ان نقول : « كل انسان يكون فانيا » او « كل انسان يوجد فانيا » ، او كل انسان كائن فان . كما هو شأنهم فى تركيب كلامهم واذا قلنا مثلا ان « الامة العربية واحدة » ثبت هذا المعنى فى اذهانتنا ثبوتا لا يحتاج معه الى شئ من الخارج ، لا فعل الكينونة ولا اى رمز آخر من اللغة او اى امر من امور الحس . والفكرة المفهومة من الارتباط واضحة ماثلة دائما فى نفس العربى ، يلتفت اليها حين يواجه المعنى ، فاذا اراد ان يبرزها او ان يؤكد مظهرها بلفظ كتوله : « انه هو الحق » (90) .

ومعنى هذا ان الاسناد فى اللغة العربية يكفى فيه انشاء علاقة معرفية بين « موضوع » و « محمول » او مسند اليه ومسند ، دون حاجة الى التصريح بهذه العلاقات نطقا او كتابة ، فى حين ان هذا الاسناد الذهنى لا يكفى فى اللغات « الهندو - اوربية » الا بوجود لفظ صريح مسموع او مقروء ، يشير الى هذه العلاقة فى كل مرة ، وهو فعل « الكينونة فى اصطلاحهم »

واللغة العربية اذا كانت تعنى بالالفاظ فذلك من اجل المعانى ، اى لكى يودى الرمز وظيفته معرفية تحفز السامع او القارئ للعمل . وخر الادلة على ذلك لغة القرآن الكريم ، والتي وصلت الى اقصى آيات الاعجاز لفظا ومعنى ، فكان لها ذلك التأثير العظيم فى استنهاض الهمم ، لتحقيق المثل الانسانى الاعلى .

وتأسيسا على هذا الفهم لروح اللغة العربية ، قال ابن جنى فى « الخصائص » فى باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالالفاظ .

وخاصة اخرى تجعل اللغة العربية اثر « اعلاما » من غيرها من اللغات الحية المعروفة ، وهي خاصة « اليجاز المرقي » وفي هذا المعنى قال ابن خلدون : « ولما كانت الملكات الحاصلة للعرب من ذلك احسن الملكات واوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها واوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات الحاصلة على كثير من المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل عن المفعول ، والجرور اغنى المضاف ، ومثل الحروف التي تفضى بالانفعال الى الفوات مسن غير الفاظ اخرى وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب . واما غيرها من اللغات فكل معنى او حال لا بد له من الفاظ تخصه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام المعجم في مخاطبتهم اطول مما نقره بكلام العرب . »

وتلك اخص الخصائص في لغة الاعلام الحديث حتى ليذهب علماء الصحافة في لغات الغرب الى ان الاسلوب الاعلامي يعني : « اعطاء الحقائق بما يمكن من الدقة والسرعة واليسر والظرف (93) » .

ومن ذلك ، اختلاف صيغة المبنى للمجهول بين اللغات الاوربية ، واللغة العربية ، لان العربية تدل على المبنى للمجهول بصيغة خاصة في اوزان الفعل الثلاثي والفعل الرباعي او الخماسي او الفعل المزيد على الجبلة ولكن اللغات الاخرى تسدل على المبنى للمجهول بعبارة لا اختلاف فيها لتركيب الفعل على كلتا الحالتين (94) .

نحن نقول فتح الرجل الباب ، ونقول : فتح الباب ، بصيغة المجهول « ولكن العبارة الاوربية التي تدل على ذلك تقابل قولنا (ان الباب يكون مفتوحا ، او ان الباب صار مفتوحا) وهو تعبير يخلو من دقة الصياغة العربية ، لانه اقرب الى الوصف منه الى الاخبار او الاعلام ، ولا سيما التعبير الغالب عندهم وهو ما يقابل قولنا (ان الباب مفتوح) .

وتزيد اللغة العربية بصيغة لا وجود لها عندهم ، وهي صيغة الفعل المطاوع ، فيقول القائل (انفتح الباب) ويعبر بذلك عن معنى لا تدل عليه دلالتة

فاذا رايت العرب قد اصلحوا الفاظها وحسنوها ، وحمو حواشيتها وهذبوها ، وصقلوا عزوبها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنويره وتشريف ثم قال : « فكأن العرب انما تحلى الفاظها وتدبجها وتزخرها بعناية بالمعاني التي وراها ، وتوصلا بها الى ادراك مطالبها.. وقد قال رسول الله (ص) ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا . فاذا كان رسول الله يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء لقوم التسي جعلت مصائد واشترাকা للقلوب ، وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم اشرف من الخادم . والاخبار في التلطف بعذوبة الالفاظ الى قضاء الحوائج اكثر من ان يوتى عليها ..

واذا كانت اللغة العربية تختلف عن اللغات الاوربية ، من حيث ان الجملة في الاخرة اسمية يتقدم فيها الفاعل على الفعل ولا يتقدم الفعل فيها الا شفوذا في حالات قليلة جدا اهمها حالة الدلالة على المفاجأة ووقوع الفعل على انتظار ، فان القول في الذهن العربي ، هو اسم يقابل الفعل المسبوق بعلامة المصدر ، ومن هذا يتساوى « القول » و « ان نقول » في الادراك الصحيح (91) .

على ان الجملة الاسمية موجودة في اللغة العربية ، وليست مع وجودها قليلة الاستعمال في موضعها فليست تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزا عن التركيب الذي يتقدم فيه الفاعل على الفعل ، ولكنه تقرب للكلام على حسب مواضعه ، وتصحيح لموقع الفاعل من آراء المتكلم وفهم السامع . وتلك اخص الخصائص في لغة الاعلام .

فاننا نقول « محمد حضر » اذا كنا ننتظر خبرا عن محمد او عن حضوره على الخصوص ، ولكننا نقول « حضر محمد » ان يسمع خبرا من الاخبار على اطلاقه ولا يلزم ان يكون الخبر عن محمد ولا عن الحضور بل لعل السامع كان ينتظر كلاما عن حسن وعن على كما ينتظره محمد ، او لعله خير سفر وليس بخبر حضور او غير منتظر (92) .

(91) المقاد : اشتمات مجتمعات — ص : 57 .

(92) المرجع السابق — ص : 60 . (N.Y.) 1961 . Bond, F. Fraser : "An introduction to journalism"

(93) المقاد : اشتمات مجتمعات — ص : 62 .

(94) المقاد : اشتمات مجتمعات — ص : 63 ، 64 .

الدقيقة كل من صيغة المبني للمعلوم وصيغة المبني للجهول .

ويظهر الفارق في الدلالة على المعاني المختلفة عند استخدام الفعل في الجمل المفيدة على حسب دلالتها .

فإذا قلنا « فتح محمد الباب » فهذا خبر لمن يهه ان يعرف من الذي فتح الباب .

وإذا قلنا « فتح الباب » فقد يكون الخبر موجها — أيضا الى سامع يهه ان يعلم شيئا عن الفاعل ، ولكن المتكلم يخبره بأنه يعرفه ولا يريد ان يفكره .

ولكن هناك حالة غير هذه وتلك ، وهي حالة انسان منتظر فتح الباب ولا يعنيه من الذي فتحه كما لا يعنيه ان يقول له المتكلم انه يجمله او يسكت عنه .

في هذه الحالة يقول العربي : « انفتح الباب » فيؤدى المعنى المطلوب بغير خلط بينه وبين الحالات التي ينتظر فيها السامعون خيرا عن فاعل الفتح ، معلوما كان او مجهولا او مسكوتا عنه مجهولا او مسكوتا عنه مع علم السامع به تمعدا لاخفائه او لاماله .

واللغة الدقيقة التي استوفت وجوه الدلالة — هي كما يقول الاستاذ العقاد (95) — اللغة التي نلاحظ مقتضى الحال في كل عبارة من العبارات الثلاثة ، ولا تستخدم عبارة واحدة لموضعين ملتبسين ، بل تستخدم كل عبارة لموضعها الذي لا لبس فيه .

وهذه هي صفة اللغة العربية في وفائها بالمعنى المتصودة في الاتصال الاعلامى على حسب ارادة المرسل والمستقبل ، او على حسب ضرورة التفاهم بين الاثنين .

وهذه الصفة في اللغة العربية تميزها بما يمكن ان نسميه « الدينامية » او الحركة ، التي تجعلها اصلح اللغات لطبيعة الاعلام ، وتمنحها طواعية في ايراد حادث وقع حالا يبعث على اهتمام القراء به .

كما تتمكن من اعلام القراء بكل ما يريدون ان يلمسوا به من سرد صحيح موقوت لاحداث وكثيرات وآراء وامور من اى نوع تؤثر في القراء او تثير اهتمامهم .

فاللغة العربية بذلك تضم في ثناياها اخص خصائص لغة الاعلام ، وهي العلاقات المتغيرة بين الانسان والانسان وبين المرء وبينه ، اجتماعية او اقتصادية او سياسية او مادية او غير ذلك من العلاقات .

وعلى ذلك فان في اللغة العربية طواعية تمكنها من الاجابة على الاسئلة التي تجول في خاطر رجل الاعلام دائما وهي : « ماذا حدث » و « ماذا يجرى الآن » ؟ « والا من جديد ؟ » « ائمة ما يثير » « اهنالك ما يسؤن بجديد ؟ » .

ومرجع ذلك الى الخصائص الاعلامية الاصلية في اللغة العربية ، والتي تبين من تكييفها وفقا للتواليب الاعلامية المختلفة ، بحيث استخدمت في الصحافة الحديثة ، وفي الوسائل الاعلامية المستحدثة ، ولم تقع في اخطاء لغوية كالتى تقع فيها اللغات الاوربية ، حينما تتحرر من بعض القيود اللغوية ، ولا سيما عند صوغ العنوانات المختصرة .

ذلك ان الخصائص التي تتميز بها لغة العرب استوفت وجوه الدلالة على ما نعلم ، في ملاحظة مقتضى الحال ، وقد رأينا من ذلك مثلا خاصتها في المبني للجهول ، ووجدنا العربية تثبت للفاعل درجاته وانواعه بدقة نبعت من منطق اللغة الذي يفهم بالقياس كما يفهم بالسماع والتوقيف .

ولذلك فإنا عند ما نقول في مخطبات هذا الفصل : ان اللغة الاعلامية هي اللغة العربية الفصحى نعنى ذلك جميعا ، على تقيض ما يذهب اليه البعض فى اللغات الاوربية (96) من ان لغة الاعلام لغة الفن الصحفى بالذات مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة الاصلية الفصيحة .

والاعتراضات التي تثار حول اختيار عبارات العنوانات في الصحيفة هي اعتراضات اقرب الى الجوهر منها الى القالب ، فاللغة في العنوانات لا يقصد بها الا عرض الخبر عرضا موجزا ، اما الخبر نفسه فينبغى الا يكتب بهذا الاسلوب الموجز . على ان اللغة العربية بمرونة خصائصها ، تمكنت من تجاوز هذه الاعتراضات لانها لغة تتميز بالايجاز

(95) العقاد : اثبتات مجتمعات — ص : 63 ، 64 .

(96) العقاد : « اللغة الشاعرة » — ص : 15 .

والوضوح والنفاد المباشر والتأكيد والاصالة والجللاء
والاختصار والصحة .

وذلك ما عنيناه من قولنا : ان اللغة العربية ، لغة
معرفية .

اللغة العربية وظيفية هادفة :

ويبين مما سبق ان اللغة العربية تمتعت بخصائص
اعلامية ، تجعلنا نلاحظ انها تتفق مع غايات الاعلام
الحديثة من حيث انه اداة وظيفية ، وليس فنا جماليا
يقصد لذاته ، لانه يهدف الى الاتصال بالناس ونقل
المعنى والافكار اليهم .

وذلك ما نريد ان نذهب اليه من قولنا : ان اللغة
العربية ، وظيفية هادفة ، لانها كما رأينا لغة معرفية
تهدف الى الاعلام والتفسير والتوجيه والتنشئة
الاجتماعية .

فان من خصائص هذه اللغة العربية في تعبيراتها ان
الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالاتها الشعرية المجازية
ودلالاتها العلمية الواقعية في وقت واحد بغير لبس بين
التعبيرين .

فكلمة الفضيلة تدل بغير لبس على معنى الصفة
الشريفة في الانسان ، ولكن مادة فضل بمعنى الزيادة
على اطلاتها لا تفقد دلالتها الواقعية على المواد
المحسوسة ، بل يصح عند جميع المتكلمين والمستمعين
ان ينهوا « فضول » القول على انه وصف غير جيد ،
لان الزيادة في غير جدوى تخالف الزيادة المطلوبة اذا
كان المقام مقام القول في صفات الكلام .

ولا يصعب الجمع بين التعبير الواقعي والتعبير
المجازي الشعري في مئات من الكلمات تجري على
اللسنة كل يوم وتؤدي الى السامعين معانيها النظرية
الفكرية ومعانيها الحسية في وقت واحد بغير لبس
بين المقصود في كل مقام . فاللغة العربية اذن تستطيع
ان يكون لها تعبيرها الذي يناشد حاسة الجمال لدى
القراء ، وتتضمن ايضا اتصالا ناجحا اساسه الوضوح
والسهولة ، والوظيفة الهادفة ، وسليقة اللغة العربية
الاعلامية تكاد تجعل منها فنا تطبيقيا قائما بذاته ،
لتصبح تعبيرا اجتماعيا شاملا في الاتصال الجماهيري ،

لانها لغة حركة خاضعة لكل مظاهر النشاط الثقافي من
علم وفن وموسيقى ، الخ .

هذا الى جانب السياسة والتجارة والاقتصاد
والموضوعات العامة . فاللغة العربية تمتاز بدقة تعبيرها
والقدرة على تمييز الانواع المتباينة والامراد المتفاوتة
والاحوال المختلفة سواء في ذلك الامور الحسية
والمعنوية .

ومن امثلة ذلك ان : المشى عام ودرج للصبى
الصغير ، وحبا للرضيع ، وحجل الغلام ان يربح
رجلا ويمشى على اخرى ، وخطر الشاب باهتزاز
ونشاط ، وولف الشيخ مشى رويدا بخطى متقاربة ،
وهدج مشى مثقلا ، ورسف للمقيد ، واختال وتجتر
وتخلج واهطع وهرول وتهادى وتلود انواع
من المشى (97) .

والنظر علم ، ورمقه نظر اليه بجامع عينيه ،
ولحظة نظر اليه من جانب اذنه ، ولحه نظر اليه
بعجلة ، وحده ونظر اليه شزرا اى نظر العداوة ،
واستشف الثوب رفعه لينظر الى صفاقته ، واستكته
واستشرفه نظر اليه واضعا يده على حاجبه من
الشمس ، وصدق جمع عينيه لشدة النظر وتصنع نظر
في كتاب او حساب ليكشف صحيحه من سقيبه .

والطيران عام ، والسدف والاسفاف والرمرفة
والتحليق والتدويم والريف انواع مختلفة له .

فالدقة في العربية ، دليل على بلوغ اصحابها درجة
عالية في دقة التفكير ولكنها خاصة اعلامية حين نقول
انهم يتصفون بمزية الوضوح وتحديد المقصود تحديدا
يقنضيه المنطق العلمى ولا يمكن ان تكون اللغة البعيدة
عن الدقة المتصفة بالمعوم او الابهام او الغموض اداة
للتعبير الاعلامى الدقيق ، ولا بد من التقابل في الخصائص
والصفات بين التعبير والتفكير والتخصيص اللغوى
والدقة في التعبير اداة لا يد منها لرجل الاعلام ، صحفيا
كان ام اذاعيا ، لتصوير دقات المعلومات وابرازها
في جوانبها الخاصة المتميزة ، وصفاتها القابلة على
الوظيفية الهادفة .

ونحن اليوم احوج ما نكون الى بحث اللفظ الدقيق
من لغتنا واحياء الفروق بين الالفاظ لتكون لدينا لغة

تصلح ان تكون اداة للاعلام العربى فى مواجهة التقدم
الفنى الهائل ، وانطلاق وسائل الاتصال بالجهاير .

ذلك ان العربية قد اصبحت فى عصور الانحطاط
بمرض العموم والغموض والابهام ، كنتيجة لانفقاد
وظائفها الهادفة فى هذه العصور ، فضاعت الفروق
الدقيقة بين الالفاظ المتقاربة فعدت مترادفة وكثر
استعمال « الالفاظ فى المعانى المجازية وصرفت عن
معانيها الاصلية فمضاع الفكر بين الحقيقة والخيال
وزالت الخصائص المميزة والفروق الفاصلة واصبح
لكل موضوع مهما تكرر قوالب من اللغة ثابتة واداة
من اللفظ لا تتغير مصوغة لكل مناسبة او موضوع
تنقل وتلحق كلما تكررت تلك المناسبة او عرض ذلك
الموضوع فاذا كان الموضوع وصف حقيقة او تعزية
صديق او التعبير عن فرح او طرب لم يتغير الكلام ايا
كانت تلك الحقيقة وفى اى بلد وايا كانت مناسبة
التعزية او الفرح (98) . وفى ذلك قتل لخصائص اللغة
العربية ومزاياها الاعلامية من ابراز المقومات والمزايا
الخاصة والدقائق الخفية .

على ان اللغويين ايام ازدهار اللغة ، كانوا يدركون
هذه المزية من المزايا العربية ، فعنوا بابراز الفروق
بين الالفاظ فى مؤلفات خاصة لكتاب الفروق « لابسى
هلال العسكري وابواب الفروق من كتاب ادب الكاتب
لابن قتيبة والقسم الاول من « فقه اللغة واسرار
العربية » للثعالبي .

كما كان كتاب العربية ، يحرصون على هذه المزية
الاعلامية فى لغتهم ، فيضعون الالفاظ فى مواضعها
ويحرصون على دقة التعبير ، فكان الجاحظ يستعمل
الالفاظ التى تتخصص مدلولاتها بها لا تتناول سواها
بقدر ما تسمح له اللغة بذلك فاذا ذكر آلة او اداة او
طعاما او لباسا او شيئا من هذه الاشياء المادية فذكرها
باسمائها الخاصة وفرق بهذا التخصص بين انواعها
المختلفة فمن ذلك التخبوط والجوانفة والشلطة
لضروب من السمك ، والجعفرية لضرب من السفن ،

والسرجة والمصباح والتنديل ما يستصبح به ، والمصام
ما تسد به القوارير ، والكجاج للعلل الذى ينظف
المثاعب والمجارى ، والشارع للسكة الكبيرة . والرائع
للطريق الضيقة بين المنازل (99) ، الخ .

ونجد مثل هذه الدقة فى الوصف عند كثير من كتّاب
العربية فى مختلف العصور ، ولا سيما فى القرون
الاربعية الاولى بعد الاسلام ومن هؤلاء : عبد اللطيف
البغدادي (557 هـ — 629 هـ) فقد كان دقيقا فى
ملاحظته وتعبيره فى رحلته الى مصر التى سماها
« الامادة والاعتبار » فقد وصف فيها نباتات مصر
وحيواناتها وآثارها وصفا يبعث فى الانسان الدهشة
والتعجب فمن ذلك قوله فى وصف الياضية : « وهى
ثمر بقدر ابهام اليد ، كانه جراء (100) القثاء ، شديد
الخضرة ، الا ان عليه زبيرامشوكا ، وهو مخمس
الشكل ، يحيط به خمسة اضلاع ، فاذا شق عن خمسة
ايبات بينها حواجز وفى تلك الايبات حب مصطف ،
مستدير ابيض اصفر من اللوييا ، هس ، يضرب الى
الحلاوة وفيه قبض ولعابية كثيرة (101) » .

بهذا الاسلوب البسيط الدقيق فى كلياته وصف
البغدادي فى رحلته هذه سائر ما شاهده فى مصر من
النبات والحيوان ومعالم العمران والاكثر القديمة وانما
كانت دقة الوصف من استعمال الالفاظ المطابقة لمعانيها
الدقيقة فى دلالتها .

وهذه الخاصة الوظيفة للغة التى استخدمها كتاب
العربية خير استخدام ، جعلت علماء الصحافة والاعلام
يذهبون الى ان الجاحظ — وهو من كتاب القرن الثالث
الهجرى — بان يكون اول صحفى ممتاز او انه عاش
فى القرن الذى نميش فيه . يقول الدكتور ابراهيم
امام : (102) . « يمكن النظر الى ادب الجاحظ فى
مجموعه على انه ادب تتوفر فيه الكثير من خصائص
الفن الصحفى لقد كان الجاحظ رجلا شديد الانغماس
فى المجتمع ، وهو فى الوقت نفسه فزير الانتاج الى
درجة تلفت النظر ، وانتاجه وثيق الصلة بالانكار
فى تلك البيئة العباسية من دين وسياسة وثقافة وعادات

(98) محمد المبارك : خصائص العربية ص 62 .

(99) محمد المبارك : فن القصص فى كتاب النجلاء للجاحظ — ص : 38 .

(100) جراء جمع جرو الصغار من كل شئ .

(101) عبد اللطيف البغدادي فى مصر . مطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة — ص 20 .

(102) دراست فى الفن الصحفى — ص : 33 .